الدفتر والقسيمة

وغيرهما من القصص القصيرة

الحقوق كافة
محفوظة
لاتحاد الكتّاب العرب

البريد الإلكتروني

E-mail: unecriv@net.sy
aru@net.sy

موقع اتحاد الكتاب العرب على شبكة الإنترنت
http://www.awu.sy

الإخراج الفني : وفاء الساطي

هيسم جادو أبو سعيد

الدفتر والقسيمة

وغيرهما من القصص القصيرة

منشورات اتّحاد الكتّاب العرب
دمشق

سلسلة القصة (4)
2019

الإهداء

إلى:

راغدة...

وابتسامتها التي لا تغيب...

صفوان...

العائد من كوكبه القصيّ...

مها...

المتوارية في إغراء المسافات...

وإلى كل المتشبثين بأمل الحياة....

جمر تحت الرماد

ابتسامة

صديقتي ابتلي السرطان بها... أعدّ لها حبائله وفخاخه، كما يعدّها لكل من يهاجمهم... اتخذ من خلاياها جسداً له، فأثار تمردها وفجّر جنون قطعانها وأنبتَ لها أنياباً ساغبة راحت تفتك بما يحيط بها من خلايا مسالمة هادئة متزنة!! استعار من دمائها دماء ينبض بها وينال بها قسطه من هواء تتنفسه ومن غذاء وشراب راح يسترقه ليوهنها لحظة بعد لحظة دون أن تدري!

وعندما مدّ جذوره كجذور الصبار، وأيقن أن اجتثاثه بات محض ضرب من الوهم، شعر بقدرته على أن يواجهها دون مواربة، ودون خطط غادرة لم يوفر منها خطة من قبل، فأشهر سكاكينه وراح يطعنها في صدرها... في صدرها دون غيره... فقد كان ناقماً على كل ما كان يعتمل في ذاك الصدر من حب تذوق عصارة ثماره الناضجة كلُّ من عرفها يوماً!!

فوجئت للحظة... حاولت أن تكفّن الآهة التي زفرها الصدر المطعون غدراً... تمنت أن يكون كل ذاك الألم عابر سبيل يسترعي انتباه من يمر بهم إلى أن تغيّبه المسافة والنسيان... تمنت أن تكون دعابة تثير الضحك بعد إجفال... فقد بدت لها تلك الهجمة مبالغة في النقمة... في الحقد... وفي التشفي... لكنه لم يرعوِ...

عندها أيقنت أنها باتت عالقة بين براثن وأنياب لن تترك منها، إذا ما استسلمت لها، سوى الحطام!!

استغرقت ثواني معدودات لتتخذ قراراً بشأن الرد الذي ستوجهه على ذاك الهجوم المباغت... وأكاد أجزم أن اللغة التي أستخدمها الآن، والتي تستمد مفرداتها من قواميس الحروب، ما كانت لتخطر في بالها... وإنما

أضطر لاستخدامها لضيق عبارتي أمام اتساع رؤياها!! استغرقت فقط الزمن الكافي لتأخذ نفساً عميقاً أثلج صدر السرطان المستوطن في صدرها، وقد توقع أن يتلو هذا الشهيقَ زفيرُ صراخ مكلوم وبكاء ناشج!! لكنه فوجئ بها تزفر ما امتصه من هوائها، لتبتسم في وجهه... لتبتسم في وجهه كما لم يبتسم أحد في وجهه من قبل... بهدوء... بحنو... بثقة...

تقهقر خوفاً... تلفت حوله... وراءه... خوفاً من مصيدة مدبرة تدفعه الابتسامة للسقوط فيها... لم يجد شيئاً... أيقن أن الابتسامة ذاتها هي المصيدة! دفع حليفه الألم كي يدك معاقلها، ويدفعها لاستسلام سريع، ففاجأت الألم أيضاً بابتسامة!! وفي غضون أيام تحول الألم إلى صديق لها... فما كان بإمكانه أن يقاوم سحر تلك الابتسامة وجمالها... وشجاعتها... في غضون أيام قرر أن يلازمها، لا حاقداً كما أراد له السرطان، بل عاشقاً كما أرادت ابتسامتها... فنادته... ربتت على كتفه... داعبت شعره بأصابعها، واحتضنته إلى صدرها... صدرها الرافض للحقد والخوف والاستسلام في حمى الحقد والخوف والاستسلام التي يعيشها العالم بأسره من حولها...

طوال تلك الفترة كنت بعيداً عنها بناء على رغبتها... رغبتها التي فاجأت السرطان نفسه، وجعلته يشعر أنه ابتلي بخصم لا يُهزَم! فلطالما رأى من يستوطن أجسادهم يندفعون في طلب أصدقائهم... أقاربهم... أحبائهم... ربما بسبب ضعفهم، كي يجدوا من يشدّ على أيديهم ويقوّي عزيمتهم، وربما بسبب استسلامهم لقرب الفراق، كي يودّعوهم، ويوْدِعوا في عيونهم صورهم الأخيرة! أما هي فقد آثرت أن تظل وحيدة... بل وحيدة مع ألمها... صديقها الجديد الذي لم تشأ أن تبخسه حقه في صداقتها، فأرادت أن تعطيه الاهتمام الذي يستحق، كما أعطت كل من عرفتهم من قبل، ووحيدة مع سرطانها الذي يشهر عداوته في كل لحظة في وجهها، لتستدرجه بابتسامتها إلى صداقتها، فيرغيَ ويزبد وقد أحس في نفسه ضعفاً وميلاً للانطواء تحت جناحها مسالماً هادئاً!!

كنت أكتب إليها في أيام متفرقة رسائل قصيرة، أرسلها عبر أثير الهاتف الجوال، لا تتعدى كلمات: صباح الخير... أو بعض الأمنيات الطيبة... فقد كان ما أرغب في قوله لها أكبر من أن تحمله رسالة أو لغة! وفي كل مرة كانت ترد التحية والأمنيات بأحسن منها... بفيض من الأمل والغبطة والجمال، فأتساءل عن حجم الأمل والغبطة والجمال الذي تحمله حتى تستطيع نثر هذا القدر منه حولها وفي نفوس كل من يعرفونها!!

إلى أن كان يوم بادرتني فيه، للمرة الأولى مذ أحكم السرطان حبائله حولها، برسالة اهتز لها الهاتف المحمول كعادته الخرقاء، ما دام لم يشعر بما حملته مما زلزل أعماقي كما لم تفعل بي رسالة من قبل! الصدمة الأولى بدأت مع الكلمة الأولى: "صباحهُ..." مختصرة ما كانت تغدقه من أمل وتفاؤل مع عبارات سابقة: "صباح الأمل والتفاؤل..." ووجدتني عاجزاً عن التكهن بالمعنى الذي يعود عليه ضمير "الهاء"، لتتابع رسالتها: "صديقة لي عانت من المرض كثيراً، بعثت لي تسألني: هل سنظل هكذا نسرق الفرحة من الألم؟ والبسمة من المعاناة؟ فرددت: نعم... سنظل نحاول ونحاول حتى تمل منا الحياة..." وددت هنا لو أستطيع استيقافها كي لا تكمل، فلو امتلكت الحياة الحد الأدنى من الذكاء... الحد الأدنى من العاطفة... لما تسلل إليها الملل من كل ما يجيش في صدرك من حياة، على الرغم مما استوطنه من أصدقاء جدد!! ثم تعود في رسالتها لتخاطبني متسائلة: "فما قولك يا صديقي؟! ألن تمل منا وترحل عنا؟!" باغتني السؤال على الرغم من سكاكين الكلمات التي مهدت له... أهو الملل؟! أهو الألم؟! أهو الاستسلام والرغبة في الخلاص القريب؟! طمستُ شاشة الهاتف بظلمة فاضت من صدري ودموع اغرورقت في عينيّ، وقررت أن أزورها... لن أتصل لأبلغها بقدومي... لا أريد لأي حاجز أن يفصل بيني وبينها... لا أريد أن تستعد لقدومي فتبدو كما لن تبدو لو لم أبلغها!! واتجهت من فوري نحوها... ممتلئاً بالبكاء... بالحزن... راغباً في أن أواسيها... أن أبثها ابتسامة تشد أزرها... تخفف من مللها... تعيد رباطة جأشها... أشد على يدها... أبعث فيها شيئاً من الدفء الذي افتقدته يدي حتى باتت كالجليد!!

وهناك... عند باب بيتها... وقفتُ سنبلة صفراء يراقصها التردد ويقصّفها الألم، لكنني استجمعت ما تبقى في خوائي من شجاعة كافية لأطرق الباب وأنتظر دقائق مرت بي بطول الدهور، قبل أن أرى الباب ينشق عن تلك الابتسامة التي جرفت كل ما تراكم فيّ من حزن وألم ويأس، وبثّت في روحي فرحاً ودفئاً لم أعهدهما فيها من قبل...

غبار

بدأ الثلج يذوب... حتى القطبان المتجمدان دهوراً بدأا يذوبان، فلا غرابة في أن يذوب الثلج هنا...

الشمس الشريرة مدت أذرعها الأخطبوطية في كل اتجاه لتلتهم الثلوجَ المتبقية منذ زمن صار مغرقاً في برودته، والريح قافلة من الجمال التي لا تتعب من حمل كل هذا البياض لرميه في صحراء الوحل...

وقفت عند بابي ممزقاً بين موتين لا أجد مفراً من أحدهما... فإما أن أرتدي الوحل الذي ارتدته الأرض والبيوت والسماء، وإما أن أصطلي بنار الوحدة أمام مدفأة صارت تصطلي بدمي...

بدأ الثلج يذوب... وعليّ أن أجد مهرباً قبل أن أصير عاجزاً حتى عن اختيار موتي... لا بد من طريقة عندما لا يجدي الهروب ولا يجدي خوض المعركة! طوال حياتي كنت أبحث بشغف وأقرأ عمن يبحثون... وكم من مرة لطم البحث وجهي بأفكار حسبتها جنوناً أو ضرباً من الخيال! أذكر الآن فكرة تشبه من بعيد فكرتي التي تحاول اجتثاثي لزرعي، فهل نستطيع الاحتفاظ بجثث الموتى إلى زمن نتمكن فيه من إعادة إحيائهم؟!! حينها بدا لي السؤال مجنوناً، والآن أذكره لأقارن جنونه بجنون سؤالي: هل أستطيع الاحتفاظ بي حياً إلى زمن أتمكن فيه من العودة للحياة ؟!!

بدأ الثلج يذوب... وفي ذهني انبثقت فكرة كبئر من النفط ظل مدججاً بالعمق دهوراً... فحملت رفشي وفتحت أبوابي ونوافذي لأخرج إلى حديقتي التي حرصت على أن لا تلوثها قدم موحلة، ورحت أرمي بالثلج، بل بما تبقى من الثلج إلى داخل غرفتي، مراعياً تجنب أية ذرة من الوحل كي يبقى الثلج ناصعاً كما أريد...

عملت ساعات إلى أن حشوت الغرفة بالابيضاض، ثم أغلقت النوافذ من الخارج ودخلت لأغلق الباب خلفي بإحكام، قبل أن أحشر نفسي في الثلج متقدماً باتجاه كرسيي المفضل، لأجلس هناك منتظراً...

بدأ الثلج يذوب... في الخارج، أما في الداخل فقد نويت أن أسلك طريقة بعض الكائنات في التبوّغ بانتظار زمن يحمل فرصة للحياة غير الملازمة للموت في كل لحظة... وبانتظار زمن لا أعرف كم من الزمن سأنتظره، رحت أتجمد داخل غرفتي لأشعر بالدفء ينضح من أعماقي ويتكلل بنصاعة الثلج التي راحت تغمر روحي...

ذاب الثلج... بينما ظل الصبية العابثون يبحثون عن المزيد منه ليلوثوه بوحولهم، إلى أن لمحوا عبر نوافذ فضولهم ما كدستُ منه داخل غرفتي، فما هان عليهم تركه دون وحل، فتصايحوا يلمون شتات تسكعهم ليكسروا النوافذ ويرموا بكل ما استطاعوا حمله من الوحل إلى داخل الغرفة ليتسرب منها إلى داخلي، ومع صياحهم تنبه الكثيرون ممن اختاروا الموت احتراقاً فجاؤوا في محاولة يائسة لنثر ثلوجي فوق اتساع الأرض لتعود إلى ابيضاضها الذي كان، متناسين أن الأرض لا يغطيها إلا ثلج تحيكه السماء، ولم يكفني هؤلاء حتى اكتشفت الشمس والريح أنني أتآمر عليهما، فراحت كل منهما بطريقتها تدمر ثلوجي وتدس لي الوحل مع أنفاسي وعبر مسامات جلدي، إلى أن صرت خلال ساعة فقط تمثالاً من الوحل...

وحدي في عالم الوحل، قررت الشمس والريح الإمعان في معاقبتي، فجففتني الشمس إلى أن بدأتُ بالتفتت، كي تحملني الريح وتنثرني هباءً، محاوِلة أن تقتل مع كل ذرة من غباري شوقاً إلى ثلج قد تحيكه السماء ذات يوم...

نيرون

يرتدي ملابسه بهدوء... يتأبط أوراقه المسمرّة لكثرة تجوالها بين أماكنه المعتادة... يبتسم في وجه أخته الصابرة وأمه العاجزة ويمضي...

" ليته يحدثني... ليته يستطيع فهم ما يشتعل في صدري... لكنت أفضيت إليه بكل ما... لكنه يعيش وحيداً ويتركني وحيدة..."

ينظر في طريقه إلى كل الوجوه التي يمر بها فتمر به مرغمة... البقال والخباز واللحام والأطفال الضاجين والشبان المنتظرين على رصيف البطالة لشاحنة تحملهم إلى عمل لا يكاد يقيتهم... يبتسم في وجوههم جميعاً محيياً دون أن يلمحوا ابتسامته، كأنها نسمة وسط عاصفة... بينما تطل من عيون بعضهم عبارة تلاحق خطوته...

" الله يقصف عمر البلداء ممن لا يشعرون بآلامنا..."

يلقي جسده على كرسي في المقهى... يطلب بإشارة شايه المعتاد من صبي القهوة...

" ألا يستطيع الانتظار دون التلويح بذراعيه؟! ألا يعرف بأنني أعرف طلبه اليومي المقيت؟! وليته بعد كل هذا يضيف إلى ثمن الشاي ولو قروشاً لي!.."

يفرد بضع أوراق على الطاولة المتسخة ويخط بحبر رديء كلمات تلهيه عن نظرات " أم المساكين" المطلة عليه من نافذة مقابلة...

" سأنتقم من بلاهتك ذات يوم... أنا أم المساكين ترد جسدي خائباً دون التفاتة وقد وهبت لك ما يتمنى الآخرون شراءه بكنوز الأرض؟!"

* *

خرج كعادته... مر بالمقهى... كتب ساعة... والرؤوس من حوله تحيك العبارات ذاتها... بدت السعادة على وجهه... تأمل أوراقه طويلاً مع ابتسامة واسعة، وكأنه يراها للمرة الأولى... نهض مسرعاً وخرج من الحارة... تحت شلال العيون التي لم تعتد منذ زمن طويل تغييراً في عاداته...

مرتبكاً كطفل أمام أم موبخة طرق الباب...

- ادخل...

أتاه الصوت مكتوماً عبر الخشب السميك...

دخل متمهلاً...

- كيف أخدمك؟

وارتسمت في عينيه عينان عميقتان، توحيان بأن صاحبهما يرتدي في العادة نظارة نسي ارتداءها اليوم بالذات...

- أحمل رواية يا أستاذ، أرغب في نشرها...

ألقى عبارته وهو يلقي جسده على كرسي وثير، بناء على دعوة من يد ذي النظارة المنسية...

تناول الرجل الأوراق السمراء... تصفح بعضها كأنه مهتم، وقلّب الباقي بسرعة كأنه مستعجل، ثم ابتسم كأنه ودود...

- سنقرؤها ونقرر...

أحس عبارات الشكر طويلة جداً والمصافحة شديدة الوطأة على روحه قبل أن يرمي بنفسه خارج ذاك الباب...

* *

تعمد التأخر أكثر من مرة عن الموعد المحدد لإجابة طلبه... لكنهم – وفوق مدة تأخره – كانوا يؤجلون في كل مرة ردهم... إلى أن أتاه رد ضغط على عنقه لسلبيته على الرغم من تحقيق ما أراد...

" سننشر روايتك على الرغم من تحفظاتنا العديدة على أسلوبها ومضمونها و..."

لم يسمع ما تبقى، فالرواية التي أهرق لياليه وأيامه في نحتها ستنشر أخيراً وليكن ما يكون...

* *

ظل الحزن يعتصره أمام أكوام النسخ من روايته في واجهات المكتبات المغمورة أو على أرصفة الشوارع، وأمام اعتذارات أصحاب دار النشر وشكاواهم بسبب ضعف بيع نسخ تلك الرواية، إلى أن – وفي إحدى محاولاته اليائسة – تلقفت إحدى الجوائز الكبيرة روايته ووضعتها في صدارة الروايات الفائزة... عندها تغير كل شيء... خلال أيام ملأت صور روايته وصوره، وعنوانها واسمه، الجرائد والمجلات وبرامج الإذاعة والتلفاز الثقافية، وخلال أيام بعدها نفذت نسخ الطبعة الأولى، وفي الأيام التي تلتها نال مبلغاً من المال ثمناً لطبعة جديدة منها، وخلال فترة وجيزة تالية انهالت عروض الترجمة إلى عدة لغات، ثم حدث ما لم يتوقعه على الرغم من كل شيء...

* *

حشرت السيارة فخامتها في أزقة الحارة التي تفضي إلى بيته، وتلونت عيون أهل الحارة بألوان السادة والسيدات عند ترجلهم منها ليسألوا عن بابه، وتراكض الصبية حول من لم يشاهدوا مثلهم إلا على الشاشات...

دخلوا بيته ساعة... وخرجوا ضاحكين... إذاً فقد تم الاتفاق... ستصير روايته مسلسلاً تلفزيونياً...

* *

فوجئ أهل الحارة باسمه على الشاشة لاحقاً لاسم روايته التي سمعوا بها دون أن يكلف أحدهم نفسه عناء قراءتها... ثم كانت المفاجأة أكبر عندما...

" أفني حياتي بين أخي البليد وأمي العاجزة، مشتاقة إلى انطلاقة في رحاب الحياة... مشتاقة إلى رجل يروي جدب روحي وجسدي..."

" ليس في الغد ما يستحق الانتظار، ولا في الأمس ما يستحق الذكرى، فمن رصيف بطالة بارد إلى رصيف بطالة أشد برودة..."

" متحملاً أوزار الكون أمضي... تحتل أمريكا العراق تسفك دماء أطفال فلسطين ويباد من يباد في دارفور و... و... لأدفع أنا ثمن كل هذا..."

" على الرغم من أنه ما زال محجة القلوب الظامئة، إلا أنني أشعر بالترهل يغزو جسدي ويدنيني من نهاية عليّ أن أبحث عن مفر منها..."

غيّر الأسماء... لكن كلاً منهم رأى نفسه على الشاشة كما لم يرغب يوماً في إظهارها... فصارت العبارة المكظومة الملقاة في إثره من قبل كل منهم صفحة، بل كتاباً كاملاً لدى بعضهم دون أن يجرؤ أحدهم – تحت وطأة القهر الملقى على ظهورهم منذ قرون – على مواجهته بعد أن صار نجماً يستحيل لمسه...

صار كل منهم ينظر إلى الآخرين متذكراً صورهم في المسلسل، متعمداً إشعارهم بمعرفته لهم، دون أن يجرؤ على الإفصاح عما في خاطره، كي لا يواجهوه بشخصيته التي رأوها وعرفوها حق المعرفة...

صارت الحارة بئراً محتقناً بذوات أصحابها الناطقة بما لم يرغبوا أن ينطقوا... صارت بارود ينتظر من يلمسه كي ينفجر في وجه ذاك الكاتب المتأبط لأوراقه السمر...

* *

نشرُ روايته الأولى وانطلاقها كصاروخ دفعه للتفكير بالبدء بروايته الجديدة... أراد أن ينطلق من الحارة ذاتها، ومن العيون والقلوب ذاتها... لكنه وجد ما سيكتبه تكراراً لروايته السابقة، فتخيل هؤلاء البسطاء يندفعون مثله خارج ذواتهم... خارج قبورهم المنحوتة في الصدور... ولأن انتظاره طال راح ينظر إلى من يمر بهم بقرف الناظر إلى جيفة منتنة، في الوقت الذي كانت فيه أحداث المسلسل تتصاعد وشخصيات أبطاله تتكشف عما فجر الدماء في عروقها في الحارة؛ فوجد نفسه فجأة – وفي ظلمة دامسة – في زقاق، محاطاً بعدة أشباح سوّدها الظلام، انهالت عليه ضرباً إلى أن فقد وعيه، ليستيقظ محطماً في مستشفى ووسط رجال شرطة لم يصلوا من تحقيقاتهم إلى الفاعلين أمام صمت أهل الحارة الصارخ...

* *

" كي تبدأ رواية جديدة عليك أن تبدأ حارة جديدة..."

أجّل كتابته للرواية الجديدة منتظراً أن تكتب الحارة مطلعها... وانتظر مصيبة كالتي أصابت حارة "الحرافيش" تذهب بالحارة وأهلها... وحاول أن يكتشف فيها المزيد مما توقع أنه لم يره، لكن كل ما في الحارة كان امتداداً لروايته السابقة...

انتظر وانتظر... شعر أن الانتظار ينهشه، وأن حياته توقفت باستمرار حياة روايته الأولى في الحارة وفي عقله... حبس نفسه في بيته... هجر كل الوجوه التي كرهها... رفض الشاي الملهم في المقهى... فكر واعتصر روحه... لكن الجدب حل بكلماته...

" إن لم يأت الحل سآتي به..."

* *

الحارة المسكينة تفجرت يقظتها لتحطم النوم والهدوء الملازمين لما بعد منتصف الليل، حين استعرت النار في كل البيوت ودفعة واحدة... علت الصرخات والتحذيرات والاستغاثات، بينما ولج غرفته مكتسياً برائحة وقود خانقة وبأمل في رواية جديدة قد بدأت أولى صفحاتها؛ وخط بحبره الرديء:

" والتهمت النيران الحارة لتبدأ من رحم النار ولادة حارة جديدة..."

تأمل للحظات كلماته على الورقة السمراء، ثم نظر عبر النافذة إلى النار المجنونة منتظراً العبارة التالية... رقصت النار في عينيه، فامتلأت روحه بالتهليل مع كل الصرخات التي سمعها والتي انبثقت من كل مكان حوله، ثم راحت تقترب منه أكثر فأكثر، وراح يصرخ:

- هيا... مزيداً من النار... مزيداً من الروح لولادة رواية...

ثم راح يضحك ويرقص كالمجنون، ثم يبكي ثم يضحك ثم يبكي مهرقاً دموعاً – على غزارتها – لم تستطع أن تطفئ ناراً راحت تلتهم ثيابه...

لقد نبح...

قبل النهاية:

صار الكلب يخرج وحده متبختراً في القرية، ليهرب الجميع من حوله تحاشياً لرائحته التي كانت تتزايد يوماً بعد يوم، إلى أن قاربت في زخمها رائحة جمعة. أما السيدة فقد هربت من كلبها الذي شفي من علّة ليصاب بعلّة أدهى! وراح يتفشى في القرية سؤال لم يمتلك أحد من أهلها الشجاعة للبحث عن إجابته:

- ولكن... أين جمعة؟!!

* *

منذ البداية:

خلال شهور فقط، عَلا في المزرعة القريبة من القرية بناء فخم، كأنه فطر "فقس" بعد رعد، وفاضت حوله الإشاعات على ألسنة أهل القرية والقرى المجاورة...

- قال مراقب العمال إن السيد الكبير حمدان باشا نفسه سيأتي للسكن في هذه السرايا!!

وانتشرت الضحكات حول همام الأحول...

- يبدو أن الحوَل يا همام قد طال عقلك أيضاً... ألا تعرف أن السيد الكبير شبع موتاً منذ أعوام؟!

ودبّ الفزع في صدر شكرية التي شهقت قائلة:

- أتكون روح السيد قادمة للسكن بيننا؟!!

ولبس الوجومُ وجوهَ النساء والرجال من حولها، وتوقف أسعد عن "شفط" المتة فاتحاً فمه محملقاً في فكرة راحت تتفشى في رأسه...

*

وفي مجلس آخر...

- وصل اليوم إلى المزرعة عدد من الأشخاص المتأنقين يا مختار...

- صحيح؟! من الواجب إذاً أن نذهب للترحيب بهم...

وابتلع المختار باقي العبارة التي نسجها فضوله...

- لكن، يا مختار، أحد أبناء القادمين قال لابني سعدو عبر السياج الحديدي للسرايا، إن القادمين جميعهم من الخدم...

- من الخدم؟!

تساءل المختار، وقد أجفله ذكر اسم ذلك العفريت سعدو، الذي لا يوفر مناسبة للإيقاع به وجعله أضحوكة أمام الناس... ثم أضاف:

- فأرسل إذاً من يسألهم إن كانوا يحتاجون إلى أية مساعدة... إنه الواجب يا أبا خليل...

*

وفي يوم تال...

التمعت عينا أبي ياسر على ضوء مصباح الكاز الشحيح وهو يقول لأم ياسر:

- يقولون يا نجيبة إن الست عواطف بنت حمدان باشا ستعود من بلاد الغربة لتسكن في هذا القصر...

وراح يفتل شاربيه المفعمين برائحة الصابون، متذكراً تلك الـ"عواطف" البضة التي كانت تأتي بصحبة الباشا إلى المزرعة لتدرج كالغزال أمامه...

" لا بد أنها كبرت... لكن السنوات لا تزيد الجميل إلا جمالاً يا أبا ياسر..."

وسها بأفكاره عن محاولات أم ياسر لإيقاظ شهوته التي انطفأت منذ أيام دون سبب واضح لديها...

*

وتجمّع أهل القرية صغاراً وكباراً أمام البوابة المنتظرة قدوم السيدة...

الولد سمعان الجابر وصفهم بالذباب فوق المزبلة، وراح يدور حولهم مقلداً طيران الذباب وصوته...

- يا جماعة... يا جماعة...

علا صوت المختار الذي وقف على صخرة قرب البوابة الكبيرة...

- ستصل بعد قليل ابنة قريتنا وابنتنا وأختنا و...

وكاد يقول " حبيبة قلبنا "، لولا أنه تنبّه إلى وجود زوجته أم فواز بين الجموع، فابتلع كلمته الجديدة إلى جانب عبارات كثيرة يبتلعها كل يوم حتى انتفخ كرشه بها...

- لهذا علينا أن نرحب بها بحفاوة، وأن نسلّم عليها باحترام... احرصوا على أن تكون ابتسامتكم واسعة، وأيديكم نظيفة...

ثم نظر بشكل خاص إلى جمعة الملقب بالجربان، والذي كان يقف بعيداً، وقال له:

- هل فهمت يا جر...

وابتلع باقي الكلمة وأعاد:

- يا جمعة...

وأراد أن يضيف:

" إن رائحتك المقززة تصلني من بين كل هذه الروائح."

لكنه وكالعادة...

*

ووصلتْ... وصلت... وصلت...

سبقتها صيحات الأولاد الراكضين حفاة على طريق الإسفلت الجديد الذي فُتح خصيصاً، وخلال عدة أيام، لسيارتها الفارهة، بعد أن عانت القرية الأمرّين بسبب وعورة الطريق وأوحاله خلال أعوام!

وعند اقترابها من ذاك الجمع المترقب، خففت السيارة سرعتها وارتفع صوت " كلكساتها " المهدد المحذر...

- يا لطيبة قلب الست! انظروا كم هي سعيدة بعودتها! كأنها في موكب عرس في المدينة... اهتفوا لها يا شباب... اهتفوا لها...

وعلا هتاف أهل القرية كصراخهم أمام المطحنة بانتظار الدور:

- أهلا وسهلا باللي جاي... يا مرحبا باللي جاي...

وظلت السيارة تصرخ من أعماق أحشائها مغطية على هتافات الناس الذين راحوا يفسحون لها طريقاً نحو البوابة بعد أن كادت تصدمهم... وحاول العديد منهم رؤية وجه السيدة عبر النوافذ الخلفية للسيارة، لكن دون جدوى! فالستائر المرخاة عليها سحقت سحالي نظراتهم المنسلة... ودخلت السيارة عبر البوابة التي فتحها الخدم من الداخل، وانتشر الناس على السياج الحديدي كالمساجين خلف القضبان، يتطلعون عبر نباتات الزينة التي لم تكن قد التهمت السور بعد، إلى باب السيارة الذي سينفتح عن تلك السيدة العائدة من أحشاء أحلامهم الزاهية... وترجّل السائق بنظارته السوداء وبدلته التي يساوي ثمنها مجموع أثمان أسمالهم البالية كلها عندما كانت جديدة، ثم فتح الباب الخلفي للسيارة، وانقطعت الأنفاس لحظةً... لحظاتٍ... وفجأةً... هُبْ... قفز من الباب كلب صغير بحجم القطط الجائعة في أحواش بيوت القرية، بلون أبيض وأذنين متهدلتين كأذني حمار أم سند ولسان صغير كلسان جورية المجنونة الذي لا يدخل فمها... وسرى همس بين الناس:

- ما هذا؟!

- انظروا... إنه كلب...

- يا جماعة... والله نحن الكلاب، لا هذا "المتعنطز" قرب السيارة اللامعة...

وبعد الكلب بلحظات، أطلت ساق بيضاء سمينة حملتْ فوقها السيدة عواطف التي كانت تشد الكلب إليها بسلسلة مذهّبة... وهبّت رياح همس جديد:

- إذاً... فهذه هي الست!!

- يا للروعة!!

وصرخ سعدو العفريت:

- هل هذه هي الست التي فضحتمونا بالحديث عنها؟! يا للغباء! إنها امرأة مثل أمي...

وصرخ المختار الذي كان مبهوراً بمشهد السيقان العارية:

- اخرس يا ولد... اخرس... مثل أمك يا ابن الـ...؟!

وابتلع باقي العبارة، بينما كانت السيدة تدخل قصرها مسبوقة بالكلب الذي بدا كأنه يدلها على الطريق...

*

السيدة لزمت قصرها، رافضة استقبال أي من الوفود المرحبة ومن وجهاء القرية، فلم يرها أحد بعد دخولها إليه... وأرسلتْ مستخدميها للاطلاع على شؤون المزرعة المترامية وإدارتها... لكنّ نتفاً من أخبارها كانت تتطاير عبر هبّات من ثرثرة خدمها الذين كانوا يمرون بالقرية أو يقصدونها لغرض ما...

- السيدة حزينة...

وانتفضت قلوب الناس في القرية لهذا النبأ...

- إن كلبها المدلل مريض...

وعلت أصوات التطوع والتبرع في القرية:

- لدينا من الكلاب ما يكفي مدينة من السيدات، فلتختر واحداً منها " حلال زلال "...

وأتت التوضيحات ممن عرفوا الأمر بشكل أفضل:

- يا جماعة... هذا الكلب ليس كلباً عادياً... إنه كلبٌ... كلبٌ... مسدودر...

- تقصد مستورد...

- نعم... نعم... هذا هو... وقد بنت هذا القصر خصيصاً لتأتي بكلبها إليه للعلاج في الهواء النظيف للقرية...

*

وراح أهل القرية الطيبون يتقصدون السؤال عن صحة الكلب التي غدت شغلهم الشاغل...

- طمئنينا يا أم وليد... كيف حال الكلب؟!

- المسكين... ما زال مريضاً...

- وما هو مرضه بالتحديد؟!

- إنه حزين... إنه لا ينبح كالكلاب الأخرى، وتكاد الدموع تفر من عينيه... وهذا ما يجعل السيدة عصبية وقلقة...

وغرق الناس في حزن الكلب الأخرس، وفي التفكير بطريقة للمساعدة...

- لماذا لا تضعه السيدة ليلة واحدة بين كلابنا؟! لن يطلع الصباح إلا وهو يزأر بدلاً من أن ينبح...

- يا مجنون... سيجن جنونه ويموت رعباً من كلابنا الحمقاء...

- نعم... نعم... هذا الكلب اسمه كلب، ولكنه أشد لطفاً ورقّةً من مباهج ابنة الشيخ ياسين...

وغمز المتحدث بعينه المترهلة، مستفزاً فرحان الذي كان منذ أيام يحور ويدور حول مباهج زينة بنات القرية...

- الحل هو في أن تأتي له بمن يخرجه من حزنه ويعلمه النباح...

- تقصد أن تجلب له مهرجاً؟!

- ومن أين لنا بالمهرجين في هذه الأرض القفراء؟! أقصد أحد أبناء القرية...

*

وانتشر خبر هذا الحل كالقمل في رؤوس الأولاد في مدرسة القرية الطينية، حتى تسللت قملة من الخبر إلى رأس السيدة عبر رأس أحد خدّامها...

بدا على وجهها الانبهار بالفكرة:

- هل تعرف أحداً يمكنه أن يسعد "بوبي" حبيبي ويعلمه النباح؟!

وركب الارتباك الخادم الذي لم يكن يتوقع هذا السؤال عندما قدم الفكرة للسيدة على أنها من بنات أفكاره...

- لا أعرف يا سيدتي... لكننا نستطيع أن نعلن أننا بحاجة إلى شخص كهذا، وسيأتينا من يجد نفسه قادراً على هذا العمل...

وعلى الرغم من استيائها من عدم جاهزية خادمها لإحضار الشخص المناسب، فقد قالت بحماسة:

- إذن... فلتعلن الخبر في القرية فوراً...

*

كانت للخبر أذرعه الأخطبوطية التي أمسكت بأعناق الجميع...

- ماذا؟!! تريد أحدنا كي يعلم كلبها النباح؟!

واهتزت الرؤوس هازئة:

- "آخر زمن"! ما أجملني وأنا أنبح أمام كلب أخرس!!

- أنت يا جميل نابحٌ نابح... فلماذا لا تنبح هناك بدلاً من أن تنبح وحدك...

وانفجر الحاضرون ضاحكين...

*

ومضى يومان صار كل أهل القرية خلالهما يتجنبون حتى الاقتراب من سور القصر، خوفاً من التهم التي يمكن أن توجّه إليهم... وثار غضب السيدة التي كاد يخيب أملها الجديد في شفاء كلبها...

- ألم تخبرهم أيها الغبي أنني سأدفع لمن يعمل عندي أجراً لا يحلم به؟!

*

وانتشر الخبر الجديد في القرية، فراحت العبارات تلين أمام رطوبة الإغراء الجديد...

- ألم تحدد الأجر؟!

- يقولون إنها ستدفع في الشهر لمن يعمل عندها ما يساوي محصول عام كامل من الأرض...

- وستزوجه بالفتاة التي يريد...

- بل إنها ستبني له قصراً مثل قصرها...

- وما حاجته للقصر إذا كانت ستأخذه معها إلى... إلى... إلى تلك البلاد البعيدة التي أتت منها، ليعمل هناك ويجمع أكداس الذهب؟!

وراح العديد منهم يلبسون الظلام ليتجهوا إلى قصر السيدة...

- جئت يا سيدتي بخصوص النبأ... أقصد بخصوص الوظيفة...

وبامتعاض ردت السيدة مشيحة بنظرها عن الرجل المتفصد عرقاً ورائحة أشعرتها بالغثيان...

- حسناً... حسناً... أرنا ما تستطيع أن تفعل...

وشعر الرجل بالارتباك... ما الذي تريد السيدة أن يفعله؟! وهز رأسه ببلاهة وتطلع إلى الخادم الذي رافقه إلى داخل القصر، فحاول هذا مساعدته:

- تقصد السيدة... أرنا كيف ستُفرح الكلب، وكيف ستعلمه النباح... تريد السيدة أن تتأكد أنك قادر على هذا...

فراح الرجل المسكين يقفز ويدور في مكانه وقد أثقله الحرج والخجل، ثم وبعد أن لاحظ برود السيدة وخادمها، راح يحاول النباح وهو يغض بصره عن العيون المتطلعة إليه...

- عَوْ... عَوْ...

فرفعت السيدة يدها مشيرة للخادم:

- يكفي... يكفي هذا... خذه من هنا... أريد لبوبي أن يتعلم النباح، لا البلادة!!

وكان رجلٌ آخر...

- عَوْ...

وقفز...

- عَوْ...

ودار حول نفسه بسرعة كالمجنون... وفي محاولة لتلافي بلادة سابقه التي صارت على كل لسان، راح يرفع صوته وينبح بعصبية أجفلت السيدة...

- فليخرج... سيرعب بوبي ويقتله خوفاً...

حتى النساء أردن تجريب حظهن مع السيدة وكلبها للحصول على تلك الوظيفة التي ستنقلهن من حال إلى حال...

- عَوْ... عَوْ... عَوْ عَوْ عَوْ عَوْ عَوْ...

راحت تنبح كأنها تنادي أولادها الداشرين في أزقة القرية... وقفزت السيدة وقد أغلقت أذنيها بيديها...

- هذا كثير... ستفجر رأسي... اخرجي... اخرجي...

وأتت امرأة أخرى بمؤهلات كانت تعتقد بأنها لا تُرفض:

- أستطيع إرضاعه مع ابنتي وسيكون أخاً لها... وأنا مستعدة...

وترددت قليلاً، فدفعها الخادم:

- لماذا صمتِّ؟! قولي للسيدة ما يمكنك فعله...

- أنا مستعدة أن ألعقه مثل أمه... نعم سأُنسي هذا المسكين أنه يتيم...

وفهم الخادم نظرة السيدة التي تكررت خلال اليومين الماضيين عشرات المرات، فدعا الأم الرؤوم إلى الخروج...

*

لم تعد هذه الزيارات إلى قصر السيدة سرية، بل صار الناس يأتونه جماعات في وضح النهار، وهي تردّهم واحداً واحداً خائبين... وصاروا قبل الذهاب إليها يتدربون مطولاً على النباح الذي ينبغي أن يتعلمه الكلب الصامت، بل وصاروا يخترعون أنواعاً جديدة من النباح وأنغاماً وإيقاعات جديدة له لم تخطر يوماً ببال أفصح الكلاب...

حتى المختار زار قصر السيدة...

" إذا كانت هذه هي الطريقة الوحيدة لرؤيتها فلماذا لا...؟!"

وقابلها... للمرة الأولى منذ أتت إلى القرية وجهاً لوجه...

- اسمحي لي يا سيدتي أن أرحب بك وأن أعبّر...

وبدلاً من أن يبتلع العبارة كعادته، دفعتها السيدة بنفسها إلى بطنه وهي تقول متذمرة:

- أرنا ما عندك دون هذه المقدمات السخيفة...

شعر المختار بالإهانة، لكنه كان يريد البقاء لأطول وقت ممكن أمام هذا الجسد المتراخي فوق الكرسي الوثير، وأمام تلك السيقان البيضاء البضة، فراح يدور حولها حابياً مقلداً طريقة الكلاب في شمشمتها، ومحاولاً استراق النظر إلى ذاك الظلام المختبئ داخل التنورة القصيرة... وكغيره خرج مطروداً...

*

أكثر القصص إثارة للأقاويل كانت قصة أبي ياسر الذي خرج من القصر محطماً بسبب الضرب الذي ناله من رجال السيدة...

- يقولون إن الكلب الصغير الذي لم يشهد أياً من المقابلات من قبل دخل فجأة إلى القاعة التي كان أبو ياسر يُبدي براعته فيها، فقفز على الرجل ظاناً أنه كلب جديد يريد أن ينافسه عند السيدة...

- هذا كلام سخيف... أتظن كلباً وديعاً قادراً على تحطيم أبي ياسر بهذا الشكل؟!

- الحقيقة أن أبا ياسر اندمج في دور الكلب حتى قفز على ساقَي السيدة وراح يعضها...

- يا جماعة... ليت المسألة ظلت عضاً للساقين! يقولون أنه قفز بكامل جسده فوق السيدة وراح يلعق وجهها وعنقها، فاستحق ما ناله من ضرب مبرح...

أما الحقيقة فلم يعرفها أحد، لأن رجال السيدة زجروا كل من حاول الاستفسار، وكذلك أبو ياسر الذي كان يتحاشى بصمته المزيد من الضرب...

*

الصوت المعارض الوحيد لكل ما كان يحدث كان صوت برهوم:

- يا جماعة... ألا تستحون؟! أليس عيباً ما تفعلون؟!

وانفجر السامعون في وجهه:

- صرت تعرف العيب يا ابن المرابع؟!

- هل تعتقد أنك صرت من "الأوادم" بذهابك أياماً إلى مدرسة المدينة؟!

- أو لعل أمك العوراء علمتك الأصول فجئت تعلمنا إياها!..

وانقضّوا عليه بمخالب عجزهم عن أن يتجاوزوا ما آلوا إليه، ليرموا به في "مقباية" أبي سليم، أكبر "مقباية" في القرية، مهددين إن حاول الخروج منها أن يعتصروه في "طفّيّة" تمنعه حتى من التنفس...

*

والوحيد من القرية الذي لم يقابل السيدة كان جمعة الجربان... لا لأنه لم يرغب في مقابلتها، ولكن لأنه كان يُطرد عن البوابة شر طردة في كل مرة تنتشر رائحة نتانته إلى أنوف الحراس والخدم!

كل أهل القرية كانوا يعرفون جمعة الجربان معرفة جيدة، لكن عن بُعد... فجمعة الجربان لا يمكن أن يتواجد مع أي شخص آخر في مكان مغلق حرصاً على حياة ذلك الآخر! وحتى الأماكن المكشوفة التي يسرح فيها الهواء ويمرح، يجب أن تبقى خالية حوله لمسافة أمتار عديدة كي لا يختنق من يقترب من الحدود الخطرة لرائحته!! وما زالت نساء القرية اللواتي حضرن ولادته يتذكرن ذاك اليوم... فما أن أطل برأسه على الدنيا حتى غطت الموجودات أنوفهن قرفاً واشمئزازاً من رائحة لم يخبرن مثلها في حياتهن، ثم قفزن خارج الغرفة ليتركن فوزية، أمه المسكينة، وحيدة مع آلامها وصراخ ولدها الخانق...

- قالت زوجتي إن فوزية ولدت ابنها المسخ هذا من أمعائها لا من رحمها...

- يا لطيف... يا لطيف...

- ما الذي تقولونه يا جماعة؟! هل تلد المرأة من أمعائها؟! الحقيقة هي أنها توحّمت على رائحة حمار أبي كامل الذي فطس مقابل دارهم وظل هناك أياماً طويلة قبل أن يجر الأولاد بقاياه بعيداً!!

وكادت أم جمعة تقتل ولدها مرات وهي تحاول إزالة رائحته القاتلة، فقد غمرته بالملح مرات ومرات حتى كاد جلده ينسلخ عن عظمه، وغسلته بالماء والصابون وبماء الزهر، وأوصت الدوّاج شايح على عدة قوارير عطر رشتها فوقه، دون جدوى... وكاد القرف من رائحته يدفعها مرات لرميه بعيداً، لكن الأمومة ظلت تزين لها الأمل...

أما أبو جمعة، فقد هجر البيت ثم هجر القرية التي لم يعد إليها، ولم يعرف أحد عنه شيئاً بعد تركه لها...

بعد أقل من عامين ماتت أم جمعة اختناقاً متأثرة برائحة ابنها الذي ظل وحيداً...

كان أهل القرية يشفقون على طفولته ويخشون رائحته، فراحوا يرمون له بالطعام من بعيد، أو يغامرون بالاقتراب منه لإلباسه قطعة من ملابسهم التي استغنوا عنها، شرط أن لا يطول اقترابهم منه مدة تزيد على الزمن الذي يستطيعون قطع أنفاسهم خلاله...

وهكذا راح جمعة يكبر في القرية لينام في أزقتها وفي حظائرها، بعد أن جعل الإهمال بيت والديه خربة متداعية، على الرغم من استياء أهل القرية مما كان يسببه لحيواناتهم من اضطراب ومرض... وظلت رائحته تكبر معه يوماً بعد يوم...

والمصيبة الكبرى كانت تقع فوق رؤوس أهل القرية عندما يقرر جمعة الاستحمام، وما كان يهوّن عليهم أثرها هو أنه لم يكن يستحم سوى مرة أو مرتين في العام دون سابق إنذار! ففجأة كانوا يرونه وهو ينزل الدرجات الحجرية المفضية إلى المطخ الدائري الكبير بكامل ثيابه المهترئة المحمّلة بشتى أنواع الأوساخ والروائح، ليبقى عدة دقائق وهو يضرب بيديه سطح الماء المحمّل بمختلف النفايات والطحالب بسعادة بادية، ثم ليخرج وقد ترك المطخ غير صالح لسقاية المواشي لعدة أيام، خصوصاً إذا قام باستحمامه هذا صيفاً! مما كان يدفع أهل القرية المساكين إلى سَوق مواشيهم نحو البئر المخصص لشرب الآدميين، كي لا تموت المواشي عطشاً وهي ترفض الاقتراب من المياه الآسنة، وكي لا يتلوث حليب الأغنام ويغدو غير صالح إلا للرمي...

*

جمعة الجربان قرر أن يقابل السيدة بأي ثمن! لا لسبب... فقط لأن الجميع قابلوها، وهو يريد أن يرى ما رأوا، وما فاضت أحاديثهم به عن اتساع القصر وعن أثاثه الفاخر، وعن ذاك اللحم العاري الذي سال له لعاب الرجال عند كل حديث...

ومع هبوط الليل تسلل جمعة إلى حديقة القصر عبر سورها الحديدي... كان المكان هادئاً ومفعماً برطوبة النباتات المسقية حديثاً... وتذكر ما ناله أبو ياسر من ضرب يوماً، فدق قلبه خوفاً، لكنه طرد من رأسه رائحة فكرة الهرب، واتجه نحو باب جانبي في القصر، فوجده مفتوحاً... كان ضوء الكهرباء التي لم تعرفها القرية إلا بسبب مولّدة القصر يملأ الداخل بالألوان الزاهية، فتقدم عبر الباب بحذر خوفاً من أن يشعر به الخدم قبل السيدة، ناسياً رائحته التي سبقته إلى كل الغرف وتسللت عبر الأبواب الموصدة!.. لكن وللحظ حصل ما أراده وأكثر...

فقد كانت السيدة تجلس في الصالون الفاره حين تسللت الرائحة إليها، وراح الفزع يتضخم في قلبها مع ازدياد الرائحة وتحولها إلى حبل خانق حول عنقها، فحملت كلبها المدلل وحاولت الركض هاربة في أي اتجاه دون أن ترى أمامها هدفاً سوى الهرب من شبح لم تعرف مصدره، فاتجهت ودون تخطيط نحو جمعة، وهي تسمع، كأنما من عالم آخر، أصوات الخدم المتدافعين هرباً من حولها... وانقبض قلب جمعة الذي رأى السيدة تتجه كالمجنونة نحوه، ثم تسقط قريباً منه، ليقفز الكلب من يديها ويصير أمام جمعة مباشرة... ولمح جمعة، وكأنه في حلم، العديد من الأجساد التي كانت تتراكض في القصر، وتوقع أن تهاجمه كلها لتميته شر ميتة، فلم يتمالك انفجار الخوف في بطنه وصرخ كالمجنون محاولاً التراجع هرباً، ليتعثر ويسقط على قفاه، وليقفز الكلب فوقه وهو ينبح بعصبيةٍ نباحه الرقيق اللطيف...

*

- تصوروا يا جماعة... لقد أمرت السيدة بفتح كل أبواب القصر ونوافذه وبإخراج كامل أثاثه لتنظيفه بأحسن المنظفات الأجنبية...

وضحك الجميع بقوة كادت تردي عبد الصبور على قفاه...

- كان ينبغي على السيدة أن تقتل ذاك الجربان جزاء فعلته تلك!!

- ماذا تقول؟! تقتله؟!! أنت لم تعرف شيئاً إذاً!!

وصمت الجميع بانتظار أن يعرفوا جزاء جمعة الذي سيكون وخيماً...

- ما إن طلع الفجر وانفضّت تلك المعمعة حتى أرسلت السيدة في طلب الجربان، وقابلته في الحديقة حيث أمرت بإبقائه بعيداً عنها مسافة تكفي لإبقائها حية!

- لا بد أنها أمرت بدفنه حياً...

- ألم أقل لك بأنك لا تعرف شيئاً؟! فلولا خوفها من رائحته لأخذته في أحضانها، ولسمحت له بأكثر من هذا أيضاً!

وغمز بعينه للرجال الذين فتحوا أفواههم دهشة...

- ولكن كيف؟! ولماذا؟!

- الكلب يا أولاد الـ... ألم تنتبهوا إلى شيء يخصه؟!

- ما به؟!!

- لقد نبح... لقد نبح...

وانتشرت تلك الصرخة في القرية كانتشار صرخة أرخميدس...

- لقد نبح...

*

منذ ذلك اليوم انقلبت حياة جمعة... فقد أمرت السيدة ببناء منزل خاص له قرب قصرها، أو بالأحرى على مسافة من قصرها تكفي لتلاشي رائحته، ومنعها من إزكام أنفها الحساس، مضحية برفقة كلبها الذي صار يتوجب، كي يصل إليها أن يمر بحملة تنظيف شاملة... وخلال أسابيع قليلة صار المنزل في خدمة جمعة الذي لم يكن يحلم بمنزل مثله... أما محاولات السيدة لتخليصه من هالة الرائحة المحيطة به فقد باءت بالفشل، وصارت ترسل كلبها المدلل إليه مع خُدامها كل يوم، ليقضي يومه متجولاً في القرية نابحاً بعصبية على كل الأولاد والرجال والنساء شامخاً برأسه كملك فاتح...

* *

قبل البداية:

" كان كلباً بحجم الفيل... فهربتُ... اختبأتُ خلف ظلام سميك ورحت أراقبه... كان الكلب يتظاهر بالنوم قرب الطريق... ومر ذاك الرجل... لمح الكلبَ النائم... سمعتُ دقات قلب الرجل تتفجر في صدره، وشممت من ظلامي القريب إليه رائحة الخوف في عروقه... اقترب قليلاً محاولاً المرور دون أن يثير انتباه الكلب، لكن الخوف راح يتفصد من جلده لأشم له رائحة واخزة... وعندما صار على مقربة من ذاك المتربص الضخم، انفجر الكلب بالنباح، ليولي الرجل الأدبار والكلب في إثره! ركضتُ خلفهما وأنا أدفع الظلام أمامي كي لا يشاهدني أي منهما، وسمعت الصراخ المجنون لذاك الرجل الذي كان حتى لحظات قليلة ماضية منفوشاً بالوقار والكبرياء!

تعب الكلب الضخم من الركض وعاد أدراجه، بينما ظللت راكضاً خلف الرجل الهارب الذي لم يجرؤ حتى على التطلع خلفه، إلى أن سقط من التعب لاهثاً مكسواً بالعرق والرعب!!

أعجبتني اللعبة... كان الرجل ينهض بتثاقل، ويحاول نفض الغبار عن ثيابه، حين خرجت من خلف الظلام وأشعلت نباحي في وجهه! بدا عليه الذهول...

" سيهرب الآن... سيصرخ خوفاً... سيتشقق جلده ويسيل الرعب عبره ليصير برْكة تسد الطريق على المارين..."

لكنه، وبعد لحظات، تقدم من نباحي المحموم، وركلني بعصبية لم تترك لي مجالاً للدهشة، فلمحت نفسي أتحول إلى كومة من عظام محطمة..."

استيقظتُ وأنيابي تصطك...

" يا لي من كلب سخيف... لا يمكن أن يحدث هذا لي... أنا متأكد!.."

هززت ذيلي وتمطيت أستجمع كل قواي، ثم قفزت عن السرير الوثير باتجاه أقرب خادم صادفته في القصر، ورحت أنبح في وجهه! كنت أريد أن

أراه يتبول في ثيابه... أن أراه يسقط وقد أغمي عليه... لكنه ابتسم!! هكذا... ببساطة ابتسم... وأشار بيده يريد طردي...

- اذهب... اذهب... وِشْت...

لكنني أصررت... لا يمكن أن يذهب كل هذا الحنق الذي زججته في نباحي هباء... فالتفتَ إلي بعصبية بعد أن كان قد أولاني ظهره وتمتم حانقاً:

- فقط لو لم تكن كلب السيدة، لحطمت عظامك...

وانحنى نحوي ليأخذني بين يديه غير آبه بإرغائي وإزبادي، وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة ماكرة...

- تعال يا حبيبي... تعال لنذهب إلى السيدة يا روح قلب السيدة...

بينما كنت أتخيل نفسي كومة من عظام محطمة...

*

كررت محاولتي تلك مع الجميع، رجالاً ونساء، صغاراً وكباراً... لكن شعرةً واحدة في ذيل أي منهم لم تهتز خوفاً مني! صار قلبي يتمزق حزناً أمام ابتساماتهم الهازئة بنباحي، وراحت الأسئلة تعضني بأنيابها الحادة:

" هل أنا كلب حقاً؟! هل يمكن مع كل ضعفي هذا أن أكون كلباً حقاً؟!"

وراح الشك يمصمص عظامي...

" لا... إنهم يخدعونني... لا يمكن أن أكون كلباً!! ولكنهم ينادونني بوبي... أليس بوبي اسم كلب؟! طبعاً... فهو ليس اسم عصفور حتماً! وهم يسمون صوتي نباحاً... والنباح خاص بالكلاب أيضاً... فلماذا لا يخافونني كما يخافون الكلاب؟!"

*

... إلى أن قررت التوقف عن النباح... فلا جدوى من نباحي سوى تذكيري بضعفي وسخفي...

أحسست بالحزن والقلق اللذين انتابا السيدة ودفعاها إلى عرضي على أشهر الأطباء، وسمعت كلمات الرجاء التي راحت تبثني إياها مع قبلاتها ودموعها، كي تسمع صوتي... كي تتأكد من أنني لم أتحول إلى كلب أخرس... لكنني رفضت الانقياد خلف عواطفي... لطالما أحببت تلك السيدة التي أحبتني واعتنت بي، لكنني شعرت بأنني أكرهها أيضاً، لأن اسمي كان مرتبطاً باسمها " كلب الست" إلى درجةٍ صرت أعتقد عندها أنني لا يمكن أن أكون كلباً إلا بوجودها...

*

كل الأطباء أكدوا أنني لست مريضاً، لكنهم جميعاً تكلموا عن مشكلة أعاني منها، ولم أجد لها ترجمة إلى لغتي الكلبية! وبناء على ذاك التشخيص نصحوا لي بالراحة والهدوء، حتى أتخلص من حزني واكتئابي البادِيين! لهذا قررت السيدة الطيبة أن تبني لي قصراً في إحدى القرى التي تملكها وتملك من فيها، كي أغير هواء المدن الفاسد وأبتعد عن ضجيجها...

*

وهنا... في القصر الجديد، خطر لها أن تستدعي من قد يعيد تعليمي النباح من جديد، لكن كل من تقدموا لشغل هذه الوظيفة رُفِضوا لعدم توفر الشروط اللازمة فيهم كما كانت تردد السيدة! إلى أن جاء جمعة...

كرهت رائحته الخانقة منذ اللحظة الأولى التي شممتها فيها، لكنه كان الوحيد الذي رأيت في عينيه نظرة خوف مني، بل نظرة رعب مني، فحاول الهرب لينقلب على قفاه صارخاً مرعوباً... عندها شعرت أنني صرت كلباً حقاً، ولا يمكن "لكُلُوبة" الكلب أن تكتمل دون نباحه، فانقضضت على صدره وأنا أبصق كل ما في جوفي من نباح في وجهه، وهو لا يعرف، لشدة خوفه من نباحي، ما يستطيع أن يفعل!!

ومنذ ذاك اليوم تغير كل شيء... أحببت هذا الرجل النتن، بل وأحبته السيدة أيضاً على الرغم من أنها كانت تعتقد أنه تسلل إلى قصرها للسرقة، فكلّفَتْه بمرافقتي... صار الناس جميعاً يهابونني ويُخلون الطريق التي أمر فيها لمجرد رؤيتهم لي، أو لمجرد سماعهم لزئيري!! منذ ذاك اليوم صرت كلباً

حقيقياً مرعباً... لكن...

عدة مرات سمعت الناس يفرون من وجهي وهم يرددون اسم جمعة... لماذا لا يرددون اسمي؟! أليسوا هاربين مني أنا؟! من نباحي أنا؟! من عضي أنا وشراستي أنا؟! وراحت الوساوس تنخرني...

" ممن يهربون؟! مني أم من جمعة؟!"

حاولت الخروج بمفردي من البيت، لكن جمعة منعني... هددته بتكشيرة من أنيابي فلم يأبه لها... أقنعت نفسي أنه اعتاد عليّ واطمأن إلى أنني لا يمكن أن أؤذيه، لهذا لم يعد يخافني! لكنني سأخرج بمفردي، وسأخيف الناس وحدي، حتى إذا اضطررت لـ...

* *

اكتشاف النهاية:

صار فضول أهل القرية يتضخم مع تضخم الهالة الخانقة المحيطة بالكلب...

- أين جمعة؟! وكيف انتقلت رائحته بهذه الفجاجة إلى ذاك الكلب المسخ؟!

وتجمع العديد منهم حول بيته ينادونه للخروج، دون جدوى! ثم غامروا بالدخول للبحث عنه بعد أن لفوا رؤوسهم وأنوفهم بما يكفل صدّ الموت المحمّل في الرائحة المهاجمة عنهم... ويا لهول المفاجأة!!!

كان جمعة الجربان قد تحول إلى عدد من العظام المبعثرة في أرض الغرفة التي راحت تضج بالديدان والحشرات والأفاعي، وقد وجدت لها فيه غذاء، إلى جانب الكلب الذي – ربما – اكتشف أنه بالتهام جمعة هذا سيجعل الناس في القرية يخشونه هو ويهربون منه هو... دون أن يدرك المسكين أنه فقد حصانته أمام كل تلك الأنوف المتربصة، منذ هرب السيدة وموت جمعة...

وس واس

- يا خالتي... يا خالتي...

انـدفعت فوزيـة كـالدجاجـة الفزعـة إلى حـوش الـدار دون أن تـدخل إلى الغرفة مفتوحة الباب...

- ادخلي يا فوزية... لماذا تصرخين؟!

التقطت الفتاة السمراء أنفاسها، ورددت ما ظلت تجتره طوال الطريق:

- لقد وصل جاسر يا خالتي...

قفزت المرأة وقد أشرق وجهها:

- وأين هو يا بنت؟!

رفعت الفتاة يدها مشيرة كيفما اتفق لتقول:

- لقد ذهب إلى صديقه فهيد...

انطفأت الشعلة في عيني أم جاسر عندما غرقتا في العتب الحزين:

- هكذا يا جاسر... بعد كل تلك الغيبة؟!

* *

تعانق الصديقان وتبادلا قبلات الشوق بعد فراق طويل...

- أين أنت يا رجل؟!

- المدينة سارقة جميلة يا صديقي... تسرقك فتتشبث بها بدلاً من أن تهرب منها...

ابتسم فهيد بدهشة:

- ولكنها تعلم البسطاء الكلام الجميل...

ومضت دقائق ثرثرة متقافزة كالماعز عشوائياً من موضوع إلى آخر قبل أن يعلو نداء سعدو داعياً أخاه جاسر للتوجه إلى المنزل حيث تنتظره أمه والآخرون... عندها صافح جاسر صديقه قائلاً قبل خروجه مسرعاً:

- أراك لاحقاً، فعندي لك ما سيغير حياتك هذه...

* *

ليتك يا جاسر لم تلق بهذه العبارة التي تفجرت قلقاً وترقباً في قلب فهيد... وراحت الساعات بانتظار عودة جاسر تتعمد الزحف زحفاً نحو ما يريد لها الوصول إليه...

" ما الذي قصده جاسر؟! كيف سيغير حياتي؟! هل دبر لي عملاً في المدينة؟! هل سيساعدني على الزواج؟!"

وراح يتذكر آماله المذبوحة أمام مسالخ فرص العمل، أملاً تلو أمل، ويحلم بفتاة أحلامه التي لن ينال نعل حذائها وهو على حاله تلك...

* *

لم يعلق أحد من منتظري جاسر على مظهره بعد حلق شاربيه، وكأنهم لم ينتبهوا، أو لم يتذكروا شاربيه اللذين ظل يباهي بهما أصدقاءه كقرني تيس منذ ارتسما تحت أنفه؛ وسرقهم حديثُه المحشو بالعبارات "المشنشلة كحمير النّوَر"، ووصفه الشاعري لجمال المدينة وفتنتها؛ ومع كل سؤال عن عمله في المدينة كان يجيب بأن الله " فتحها عليه" أخيراً، وبأن كل حياته ستتغير قريباً...

الجميع أبدوا فرحتهم ودهشتهم أمام كل ما قصه جاسر، إلا أمه التي التصقت به في مجلسه منذ وصوله، ثم بدأت تشعر أنه بعيد عنها، بعيد جداً...

* *

- ما الذي قصدته بقولك أنك ستغير حياتي؟! هل وجدت لي عملاً؟! هل...

- مهلاً... مهلاً... فهذا سيحتاج وقتاً، وأنا لا أملك القدرات على إخبارك بالتفاصيل، ولكنني اخترتك من بين كل أهل القرية لأنك صديقي ولأن مصلحتك تهمني بقدر ما تهمني مصلحتي، وسيكون ما سأقدمه لك فاتحة خير للقرية بأكملها...

- وما هو؟!

ابتسم جاسر لعلائم اللهفة المرتسمة على وجه صديقه، وأجاب ملقياً حجراً جديداً في مستنقع فضوله:

- عندما تزورني في المدينة ستعرف كل شيء...

* *

أمضى جاسر في القرية يوماً واحداً، ومع صياح الديكة في اليوم التالي كان قد أفرغ أمعاءه من أوساخها، وغسل وجهه وحمل "الزوادة" التي حضّرتها أمه ومضى نحو المدينة، بعد أن حشا رأس فهيد بآمال غائمة وعفر وجهه بالتساؤلات المؤلمة...

* *

بعد يومين فقط كان فهيد يطرق باب غرفة جاسر المستأجرة في المدينة...

- ها قد جئت كما طلبت مني، هل تأخرت؟!

- لم تتأخر أبداً، ولن تنسى هذا اليوم طوال عمرك...

- كيف؟! أخبرني...

- ستعلم عندما نصل إلى حيث ستفتح لك الحياة أبوابها الموصدة...

ابتلع فهيد لعابه الكثيف:

- إلى أين سنذهب؟!

- ستعرف حالاً...

- لن أذهب قبل أن أعرف، وأنت تعرف أنني أعند من بغل...

شعر جاسر بالاستياء من هذا التمرد في بداية الطريق:

- حسن... سنذهب إلى الشركة التي أعمل وستعمل أنت أيضاً معها !..

- وما هي هذه الشركة؟!

- إنها شركة وس واس...

- شركة وسواس؟!

- بل وس واس أيها الغبي...

- نعم، لقد قلت وسواس!..

- وأنا قلت لك إنك مخطئ، فاسمها وس واس!..

لم يفهم فهيد الفارق، فأنهى مشكلة الاسم بسؤال جديد:

- وما هي هذه الشركة؟!

- ستعلم... ستعلم...

* *

وصلا أمام مبنى قدّر فهيد – على الرغم من ضعفه الشديد في الحساب - أن فيه من الأبواب عشرة أضعاف ما في جميع بيوت قريته منها، إلا أن ثمن كل باب من هذه يكفي لبناء دار كاملة في القرية...

- هل سنعمل في هذه الشركة؟!

- بل معها...

- كيف معها ؟!!

- ادخل أولاً وستعرف كل شيء...

فهيد رفسته المفاجأة، فعند دخوله كان في استقباله شاب لامع كالزيتون الناضج، يرتدي بدلة يحتاج فهيد لشرائها ثمن محاصيل أرضه لعدة سنوات...

- أهلاً يا أستاذ... تفضل يا أستاذ...

نظر فهيد حوله كي يتأكد من أنه المقصود، فلم ير في المدخل إلا صديقه جاسر الذي ابتسم له مشجعاً؛ وفي الداخل كان الجميع على شاكلة الشاب المستقبل، يلبسون أفخر الثياب متناثرين على كراس وثيرة حول طاولات عديدة في قاعة كبيرة، وعلى كل طاولة كوب من الحليب وتفاحة أو بقايا تفاحة قام أحدهم بقضمها...

توجه جاسر جارّاً صديقه نحو إحدى الطاولات حيث جلسا، وقد شعر فهيد أنه أطرش في زفة، وبعد لحظات كان أمام كل منهما كوب حليب وتفاحة...

- اسمع يا صديقي...

انحنى جاسر باتجاه فهيد هامساً:

- الآن ستفهم كل شيء... فقط ركز فيما سيقال، واحتفظ بما لديك من أسئلة إلى آخر اللقاء...

حدق فهيد في عيني صديقه، ثم في التفاحة المنتظرة، وراح يعد الثواني...

بعد دقائق، خرج أحد الشبان الجالسين حول الطاولات بمنظره المهيب كديك جسور وراح يتكلم:

- أيها الأصدقاء، أرى العديد من الوجوه الجديدة بيننا اليوم، لهذا يتوجب علينا أن نوضح أهداف شركتنا لهم كما أوضحناها للعديدين ممن انضموا إلينا سابقاً...

شعر فهيد أنه المقصود بما يقال فاستنفر أذنيه كأرنب جفل...

- شركتنا وس واس معنية بالتغذية المتوازنة لكل الناس في العالم، لهذا أسميناها وس واس، وهو اسم مركب من مقطعين: وست (غرب) وإست (شرق) وحرف العطف بينهما ليجمع العالم كله...

بدت العبارات لفهيد كطلاسم أقدام الدجاج في الوحل، لكنه لم يزح ناظريه عن المتكلم المنفوش...

- عبر شركتنا نريد تأمين الغذاء المتوازن لكل المشتركين في شركتنا، ونحن نأمل أن يصبح كل سكان العالم من المشتركين فيها...

وفهم فهيد من كلام الرجل أن الشركة تقدم لمشتركيها يومياً ثلاث وجبات غذائية صغيرة لكنها متكاملة ومتوازنة...

- يكفي أن تدفع ألف نقدة كي تصبح مشتركاً في وس واس لمدة سنة كاملة...

هنا هز فهيد رأسه كحمار حرن، ونظر إلى جاسر بخيبة أمل عارمة، فبادله جاسر ابتسامة مشجعة وأشار له بالانتظار...

- احسبوها يا جماعة... إن ما سيتناوله كل منكم يومياً قيمته لا تقل عن عشر نقدات، وبالتالي سنوياً لا يقل عن ثلاثة آلاف نقدة...

فكر فهيد:

" أعطيهم ألفاً ويعطونني ثلاثة آلاف!! هل هذا معقول؟!"

وتذكر المرابي أبا عبود الذي يعطي ألفاً ليأخذ بعد عام فقط ألفاً ومئتين...

- وليس هذا فحسب! فمع كل مشترك جديد عن طريقك ستنال من الشركة مكافأة مقدارها خمسون نقدة، وكل مشترك جديد عن طريق المشتركين الذين تأتي بهم ستنال مكافأة عليه مقدارها ثلاثون نقدة، وهكذا يمكنك أن تعوض ألف النقدة التي اشتركت بها في شركتنا خلال وقت قصير بإحضارك للمزيد من المشتركين...

* *

مساء، كانت غرفة جاسر مظلمة على الرغم من الإضاءة التي تستمدها من مصباح كهربائي علاه الغبار ومخلفات الذباب...

- والآن ما رأيك ؟!

- فيم ؟!

- وما الذي كنا نفعله منذ الصباح؟ ما رأيك بالاشتراك في وس واس يا أخي؟!

انهالت الحيرة على فهيد فتمتم متردداً:

- لاأعرف... لاأعرف... وبصراحة لم أفهم شيئاً !

- أنا سأفهمك... أنت ستكون المشترك الأول في الشركة من قريتنا، فإذا استطعت أن تضم كل أهل القرية إليها فستصبح خلال عام واحد من الأغنياء... فكر في هذا يا فهيد يا صديقي... ستشتري حقلاً وجراراً وتبني بيتاً، وستتزوج من الفتاة التي ترغب، وإذا ما ازداد عدد المشتركين في القرية فستبني الشركة فرعاً لها هناك لإراحة أهل القرية من السفر إلى المدينة... فكر في هذا جيداً... فكر يا فهيد...

* *

فهيد راح يفكر دون أن يفكر!.. شعر أنه محمول فوق مياه "المطخ"، وأن المواشي تلعق جسده العاري وهو عاجز عن الهرب من مبارد ألسنتها، وبدأ يعاني من إسهال حوّله إلى نواس سريع بين بيته وبين " بيت الماء الشمسي"... وعبثاً حاولت أمه تهدئته ومواساته حتى دون أن تعرف سبب حالته المخيفة تلك...

الألف مبلغ كبير لكنه سيجعل منه فهيداً آخر، بل قد يغير اسمه! نعم... سيرتدي بدلة كبدلة الشاب الزيتوني، وسيبني منزلاً كمنازل المدينة الفخمة ويتزوج من "حسنا" أجمل بنات القرية، بل من فتاة أجمل منها يلتقيها في حفلة فخمة للأثرياء، وسيركب سيارة حديثة يبدلها في كل عام بأحدث منها، وقد ينال جائزة "بونل" أو "نوبل" أو شيئاً من هذا القبيل لمساهمته في القضاء على الفقر على وجه الأرض، لكن الألف مبلغ كبير!!

* *

وبعد يومين اتخذ قراراً راح لأجل تنفيذه "يفرش ناعماً" أمام أمه...

- أمي... لقد وجدت عملاً في المدينة...

انقشعت الغيوم التي أضفاها مرضه على وجه أمه، وحلّق صوتها بالدعاء له بالتوفيق والبركة...

- ولكن هذا العمل يحتاج إلى مبلغ من المال كي أبدأ به...

- لا تخش شيئاً يا حبيبي، فقد جمعت مبلغاً بانتظار عرسك... خذه ثم أعده بعد أن تبدأ عملك ما دمت واثقاً أنه عمل مربح...

شعر أن الضيق الذي اعتراه ليومين سابقين قد انفرج:

- وكم ستعطينني يا أمي؟

- كل ما معي... فقد جمعت هذا المبلغ من بيع حليب البقرة ومن ما تبقى من ثمن محصول العام الماضي...

- فهمت... فهمت... ولكن كم؟!

- ثلاثمائة نقدة...

أطفأت العبارة حماسه:

- لا يكفي يا أمي، لا يكفي... أحتاج فوق هذا المبلغ إلى سبعمائة نقدة...

كادت الأم تعلي صوتها بالولولة لما سمعت، لكنها صمتت بالعة لعابها بصعوبة...

* *

ودار الدولاب لتمضي أيام أخرى...

- أمي... سنبيع البقرة...

وانهار جدار الصمت الذي بنته الأم حولها منذ أيام، لتصرخ رافضة مولولة متبرئة من ولدها الذي يريد أن يقطع رزقها ببيعه للبقرة، إلى أن فرّ هارباً من صراخها الذي جمع الجيران كالذباب على مزبلة...

* *

أرضى فهيد أمه الطيبة بتقبيل يدها، ووعدها بنسيان فكرة بيع البقرة، لكنه أمضى عدة ليال يقلّب الأمر في رأسه فوق جمر كلمات جاسر المشجعة حتى كاد يحترق، إلى أن توصل إلى فكرة اشتم رائحتها النتنة منذ

اللحظة التي "فقست" فيها كالفطر في رأسه، لكنه لم يستطع تنحيتها لأنها كانت الحل الوحيد...

" سأستدين ألف نقدة من أبي عبود، وأسددها له مع فوائدها عندما أصير قادراً على السير فوق المال سيراً !!

* *

حمل فهيد المال إلى صديقه جاسر مع آمال عظيمة تدغدغ مخيلته التي هرمت لطول استكانتها، واشترك في الـ "وس واس" الذي سيغير حياته وحياة قريته بكاملها، ثم ترك صديقه في الشركة بعد أن تناول قطعتي لحم وورقتي خس ليتجه إلى القرية كي يباشر عمله الطموح فيها...

" كيف أبدأ؟! ومع من؟!"

راح تفكيره يعدو فوق وجوه رجال القرية باحثاً عن الكلمات المناسبة لكل منهم...

" فلأبدأ بالمختار، كي لا يغضب لأنه لم يكن أول العارفين..."

* *

وعند المختار...

- أنا لا أستطيع الذهاب معك إلى المدينة، فأخبرني بما تريد هنا...

وراح فهيد يشرح للمختار بلغة حاول أن تكون جادة وقوية، لكن المختار هز رأسه مبتسماً:

- دعك من هذا يا ولد! هل سأزور المدينة كل يوم ثلاث مرات لتناول هذا الطعام الموا... المتا... ماذا قلت اسمه؟!

- لكن يا عمي، عندما يكثر المشتركون في القرية سيفتتحون فرعاً للشركة فيها...

- إذاً عندما يفتتحون هذا الفرع سأكون أول المشتركين...

وفشلت المحاولة الأولى...

* *

"إذاً سأتحدث مع الشبان، فهم أكثر حماسةً لهذه المواضيع..."

وزار العديد منهم أو دعاهم لزيارته...

- ألف نقدة؟!! لو كنت أملكها لسافرت إلى الخليج وعدت مليونيراً...

- وأنا لو كنت أملكها لكانت إنعام الآن عروساً في بيتي...

وفشلت المحاولات كلها...

وعاود المحاولة مع الجميع، لابساً وجه الإقناع تارة ووجه الرجاء والاستعطاف تارة أخرى... دون جدوى!

وراح يرى نفسه في الحلم راعياً يسوق قطيعاً من أهل القرية، وعلى رأسهم المختار ذو القرنين الطويلين إلى وس واس كي يشتركوا جميعاً دفعة واحدة، وكي يغيروا حياتهم ويغيروا لون بشرتهم الشاحب بلون قان، وكي ينال مكافأته على إنجازه العظيم هذا... إلا أن القطيع، وعلى مرمى حجر من البناية الشاهقة، كان يتحول كله إلى حمير حرنة، تنهق وترفس وتفر من راعيها الذي كان يلطم وجهه ويبكي... ثم يبكي ويبكي إلى أن يصحو وقد غطت دموعه الوسادة...

* *

وعاد إلى جاسر...

- أنت يا فهيد بغل في الإقناع...

- تعال وأقنعهم أنت إذاً...

- لو كنت أستطيع ترك المدينة لما اعتمدت عليك... انظر... ها قد بدأتُ أولى خطواتي على درب الثراء، فشد عزيمتك واتبعني...

وعاد إلى القرية تركبه الآلام، ليقابل في طريقه أبا عبود الذي لاقاه بحفاوة كعادته مع كل المستدينين منه:

- أهلاً يا عمي يا فهيد... لم يحن موعد التسديد ولكنني أريد فقط أن أذكّرك...

ثم قابل المختار الذي ابتسم ساخراً:

- كيف حال وسواس يا فهيد؟!

لم يجب فهيد وكأنه لم يسمع، لكنه تمتم:

" اسمها وس واس يا غبي..."

ثم – وقبل دخوله إلى بيته - قابل جيرانه الشامتين:

- صحتك تحسنت كثيراً مع غذائك الجديد يا فهيد...

- هل أصبحت غنياً يا فهيد؟!

وأخيراً دخل بيته هارباً... وانزوى في الغرفة التي منع الجميع من الدخول إليها، لا ينام ولا يأكل ولا يتحدث ولا يرى ما ينظر باتجاهه، ولا يسمع أمه الباكية المراقبة بقلق وخوف...

* *

زاره خلال أيام العديد من أقاربه وأصدقائه ومن أهل القرية، فرفض مقابلتهم جميعاً، وكانت كل محاولة من أحدهم لاقتحام عزلته تفجره سخطاً ورفضاً وتحوله كلباً مسعوراً، إلى أن قرر الخروج بعد أيام، فهو لن يضيع ألف النقدة... لن يسمح لجاسر بالسخرية منه!..

لم تستطع أمه منعه من الخروج بحالته المزرية تلك، فاندفع نحو الطريق، وراح يمسك بكل من يراه مبتسماً تارة:

- اشترك في وس واس كي يقل عدد الفقراء في العالم...

وباكياً تارة أخرى:

- اشترك يا أخي، فبألف نقدة فقط ستتخلص من فقر الدم...

ثم ضاحكاً:

- اشترك كي تغير حياتك وتصبح غنياً...

وجاداً:

- اشترك كي تقضي على "الكوسترول" في دمك...

* *

في المدينة صار جاسر رجلاً آخر ونسي فهيد الذي تغيرت حياته حقاً كما تنبأ له، فقد راح أطفال القرية يتبعونه في كل طرقاتها مرددين خلفه:

- وسواس... وسواس...

دون أن يتمكن من إقناع أولئك الحمقى أن اسمها وس واس وليس وسواس...

المخبأ

توقّدت الألوان في عيون الصِّبْيَة وهم يراقبون الفتيات تحت شجرة التين...

لعبةُ "هند" صغيرة بخدود حمراء وشعر أشقر وترتدي كنزة صوفية زرقاء وبنطال جينز وخفافة أديداس... أما لعبة "كاملة" فهي كبيرة تكاد تصل في طولها إلى طول صاحبتها، لها شعر أسود وعينان خضراوان ترمشان بتكاسل مع كل حركة لها، وترتدي فستاناً أبيض قصيراً رقيق القماش يكاد يُظهر فخذيها وصدرها الناصع... أما لعبة "وردة" فكانت عصا رُبط أحد طرفيها بكتلة من قماش مهمَل لصنع الرأس، وأُلبست كيساً من خيش فبدت بقدم خشبية واحدة...

الفتيات كنّ منهمكات في تحضير طعام الغداء لبناتهن اللواتي أنجبنهنّ دون أن يتزوجن...

"فالزواج ليس للصغيرات، ومجرد الاقتراب من أولئك الصبية الشعثين خطر على فتاة صغيرة إلى حد الموت!"

*

وتقاذف الأولاد النظرات التي وشت لكل منهم بالسؤال نفسه:

- لماذا لا نستحضر كراتنا أيضاً لنلعب لعبتنا مثلهن؟!

وهناك... على طريق الإسفلت الذي لا تمر عليه السيارات إلا نادراً، وضع الصبية حجرين مقابل دار أبي عجاج كمرمى لتسديد الأهداف بينهما، وحجرين آخرين بعيدين قليلاً كمرمى للفريق الثاني... ثم تناول كل منهم كرته المخبّأة في الحاكورة... حاكورة أحلامهم... خلف الحائط الحجري

المحيط بدار حمدان الأشرم، وهو المكان نفسه الذي تخبئ فيه الفتيات دُماهنّ بعيداً عن أعين الكبار وعبثهم!!

كانت كرة "فهد" كرة سلة حمراء كبيرة وقاسية، لكنه كان فخوراً بقدرته على اللعب بها بقدمه ورأسه! وكانت كرة "عفيف" كرة صغيرة مخططة بخطوط غير مكتملة من لونين أبيض وأسود! أما "حسان" و"هايل" فكان لدى كل منهما كرة قدم كبيرة من النوع الذي رأياه في إحدى المباريات العالمية في النافذة الوحيدة المطلّة من القرية على العالم... في تلفزيون القرية عند المختار أبي جدعان! أما كرة سليمان فكانت خليطاً من مزق الأثواب والصوف وبعض التبن المدسوس فيها!

- هيا يا شباب...

وبدأت اللعبة... ورفرفت صرخات الصبيان...

- اضربها نحوي...

"فيشوط" عفيف كرته الصغيرة المخططة بقوة، فيقوم فهد بالتصدي لكرته الحمراء الكبيرة بصدره لتسقط أمام قدمه ويبدأ بمراقبة سليمان الذي انتصب كوتد بين حجري المرمى، ثم يضرب الكرة ضربة قوية يلمحها سليمان رصاصة طائشة تتجاوزه من اليمين فوق حجر المرمى بعيداً عن دريئتها، فيتركها لترتمي كرته القماشية هامدة دون أن تقفز كالكرات الأخرى حين ترتطم بالأرض! ويعلو صراخ فهد:

- جووووول...

ليتصدى له صراخ سليمان وهايل اللذين كانا يشكلان فريق "الأقوياء" ضد الثلاثة "الضعفاء":

- هذا ليس هدفاً... لقد مرت فوق "العارضة"!!

ويتدخل حسان وعفيف مدافعَين عن الهدف... وتعلو الشتائم... ثم تشتبك الأيدي الصغيرة في عراك فوق الطريق الإسفلتي، وتتبعثر الكرات الملونة وغير الملونة، الكبيرة والصغيرة! ويحرك أبو عجاج بقايا البرميل الصدئ عن باب حوشه ليخرج صارخاً بالصغار:

- اذهبوا والعبوا بعيداً يا شياطين...

وينحني ليلتقط حجراً عن الأرض بينما يفر الأولاد ضاحكين متعانقين ناسين شجارهم وكراتِهم المبعثرةَ على الطريق وإلى جانبه، دون أن يأبهوا لإمكان سرقتها، فلهم خلف حائط حمدان الأشرم كل ما يشتهون من كرات أحلامهم، وفي أي وقت شاؤوا!!

*

كرة سليمان القماشية كانت تحيّر الصّبْية، كما كانت لعبة وردة الخشبية اللابسة لكيس من الخيش تحير البنات...

- لماذا لا تستبدل بكرتك هذه كرة أكبر وأجمل مثل كراتنا؟!

- صحيح يا سليمان... يمكنك انتقاء الكرة التي تشاء...

لكن سليمان كان يهز رأسه أمام السؤال قائلاً:

- أخاف أن لا يتحقق حلمي في اقتناء كرة مثلها يوماً...

فيسارع فهد للقول:

- فافرح بالأحلام إذاً إن كنت تشك في إمكان تحقيقها...

- إن كانت أحلامي كبيرة جداً، فستكون خيبتي كبيرة جداً عندما لا تتحقق الأحلام! أما مع كرة من قماش...

ويبتسم ساخراً... فيقول هايل:

- أفضّل أن تكون أحلامي كبيرة كي أسعى بجد أكبر لتحقيقها...

ويعلق حسان بحماسة:

- وأنا أيضاً...

ليضيف عفيف:

- طبعاً... فالأحلام الصغيرة تدعو أصحابها إلى التكاسل...

ليرد سليمان بعصبية:

- هـذا لـيس صـحيحاً... سأسـعى لتحقيـق أحلامـي الصـغيرة بالاجتهـاد نفسه الذي تسعى لتحقيق أحلامك الكبيرة من خلاله، ومع تحقيق كل حلم سيتسنى لي أن أحلم حلماً جديداً!

ويتساءل فهد:

- وهل سيكون صغيراً أيضاً؟!

ليجيب سليمان:

- نعم... سيكون صغيراً... لكنني سأبذل جهدي لتحقيقه أيضاً...

*

همّام، الابن الأكبر لشيخ البلد صايل الكسار، كان يغافل قسوة والده ويتسلل من الدار هارباً إلى حيث يقيم الأولاد الدنيا بصراخهم وضحكهم ولا يُقعِدونها! يراقبهم إلى أن تقع المعركة اليومية بينهم وينصرفوا ضاحكين ساخرين من حماقاتهم الصغيرة، ثم يقفز خلف ذاك الحائط الغريب الذي لم تستطع كل أموال والده ومحاصيله ومواشيه أن تبني له حائطاً مثله في داره على الرغم من أنه طلب هذا مرات!!

*

- أريد حائطاً مثل حائط حمدان الأشرم...

- ما الذي تطلبه أيها المجنون؟! أتريد تبديل عز الإسمنت والدهان بحائط حجري متداع كحائط ذاك الأبله؟!

وينفجر الطفل دموعاً في محاولة للتوضيح:

- لكنه يخبئ خلفه أجمل الألعاب وأروعها... كرات ودمى وسيارات لم أشاهد مثلها حتى في التلفزيون!

ويهب الشيخ صايل صارخاً:

- يا امرأة... خذي هذا الولد بعيداً كي لا أحطم عظامه!

*

وخلف الحائط كان يجد ما يشتهي... بل أكثر مما يشتهي! ويقضي الساعات مبعثراً للألوان الزاهية، فاتحاً صدره للعطور التي تفوح منها وقلبه للمتعة التي كانت تبثها مزقزقةً في كل الاتجاهات... مستهتراً بما كان واثقاً من أنه سيناله عند عودته إلى أفخم بيوت القرية وأضيقها على صدره، من تأنيب وضرب لن يثنياه عن العودة ثانية للغوص في بهجة الأحلام المؤجّلة خلف حائط حمدان الأشرم!!

*

- هل عدت ثانية إلى ذاك الجنون؟!

ويصمت الطفل أمام التكشيرة المتوعدة...

- سأحبسك في المغارة مع الأفاعي والأشباح...

ويتخيل الطفل الدرجات المعتمة المفضية إلى المغارة الواقعة تحت حوش الدار الواسعة... ثم يتخيل الأصوات المرعبة المنسلّة إلى أذنيه... أفعى تمر قربه... تتشممه... فتدفعه للالتصاق بحائط قريب خشن مثل كفّي المرابع سعدو، الذي كان يساعده كل مرة على تسلق جدران الحوش الإسمنتية الملساء للذهاب إلى حيث يقضي أسعد أوقاته! وفجأة يسمع عواء الريح التي لا يعرف أحد كيف تدخل المغارة كقطعان الذئاب بأنيابها قارسة البرد، ولا كيف تخرج منها!

المغارة المثقلة بالوحشة والظلام في دار أبيه كانت مخبأ الكوابيس، كما كانت الحاكورة المزروعة بالضياء والأُنس خلف حائط حمدان الأشرم مخبأ الأحلام!!

*

لم يكن هرب همام عبر سور والده المرتفع يسعده وحده! بل كان يسعد المرابع سعدو الذي حوّله ظلم الكسار وجبروته إلى "قهوجيٍّ" وجامعِ حطب وخادم لنساء الدار الكبيرة!

كان سعدو يحمل همام حتى تتشبث يداه الصغيرتان بأعلى السور، ثم يدفعه بإحدى يديه اليابستين كأعواد الحطب لينقلب نحو الجهة الأخرى من السور... كان سعدو في كل مرة يدفع فيها مؤخرة همام الكسار لتجاوز السور يشعر أنه يبصق في وجه الشيخ صايل ويُذلّه ويمرغ أنفه في الروث!!

*

كان عفيف في هذه المرة أول القافزين خلف الحائط، فنادى أصدقاءه يستحثهم على الإسراع:

- أسرعوا يا أولاد وانظروا...

نظر فهد إلى الأحلام المبعثرة وصاح غاضباً:

- لا بد أن أحدهم كان يعبث بأحلامنا...

فقال حسان:

- هذه ليست المرة الأولى...

فتمتم سليمان متردداً:

- لكنكم تعرفون أن أحداً غيرنا لا يستطيع رؤية أحلامنا...

أجاب فهد:

- هذا ما كنا نظنه...

فتابع حسان:

- لكن ما نراه الآن دليل على أننا كنا مخطئين...

وتساءل هايل:

- ما الذي يمكننا أن نفعله؟!

فانحنى فهد داعياً الأولاد للاقتراب منه وهمس:

- سنترصد للعابث ونلقنه درساً...

وتناولوا كراتهم بعد أن دبّروا أمراً، ثم انغمسوا في سعادتهم اليومية الضاجة... وكعادتهم أنهَوا شجارهم اليومي ليتظاهروا في هذه المرة

بالانصراف، ثم ليعودوا بعد غياب قصير، فيجدوا همام غارقاً في أحلامهم! فوجئ بعيونهم تحاصره فشعر بالفزع... هؤلاء الوسخون، كما يسميهم والده، سيضربونه... سيمزقون ثيابه... سيجرونه جراً فوق إسفلت الطريق وحصاه حتى يصلوا به إلى المطخ ويلقوه في المياه الآسنة، وعندما يعود إلى البيت ستكون في انتظاره عقوبة أشد... لكنه فوجئ بشفاههم تفترُّ عن ابتسامة ودودة... كلهم ابتسموا في اللحظة ذاتها ومدوا أيديهم يدعونه لمشاركتهم المزيد من اللعب الإضافي في ذاك اليوم، ولاقتسام الأحلام معهم!

*

شيخ البلد شعر بطعنة في صدره حين أخبره درويش السايس، عينه التي تنقل إليه أخبار القرية وأهلها، أن ابنه يقفز في الهواء كالمجنون بين أولئك الأولاد الحمقى، دون أن ترى عينا درويش الخرِبتان الكرة التي كان همام يصدها برأسه حين ركلها نحوه هايل!

وشعر صايل شيخ البلد وكبيرها أن مشاكسة ابنه وخروجه عن طاعته المرة تلو المرة لم تكن أمراً عادياً، وتذكر حقداً قديماً لم يكن قد نسيه، وإن نسي أسبابه، جمعه مع حمدان الأشرم! فتسلل متخفياً بالظلام بعد أن صرف رجاله خوفاً من أن يظنوا به جنوناً، ظاناً أنه يخفي شخصيته بعباءته التي ما كان لأحد أن يرى تميزها دون أن يعرف صاحبها، ليقفز فوق ذاك الجدار ويبحث عما يدّعي ابنه وجوده، لكنه لم يجد إلا ما كان يجده عندما كان صغيراً ومتلهفاً ليجد ما كان يدّعي الأولاد الآخرون أنهم يجدونه! لم يجد إلا حاكورة مهمَلة ونباتات صبار لا يمكن حتى للموتى الاقتراب منها دون أن يصرخوا ألماً من وخز أشواكها!

*

حمدان الأشرم لم يولد كبيراً وضخماً كما يراه الأولاد الآن! أمه، عندما كان صغيراً ولتتهرب من إلحاح سؤاله:

- من أين أتيتُ؟!

قالت له أن طائر حجل أتى قافزاً وهو يحمله في صرّة قماش متهرّئة، وتركه على باب الدار حيث وجدته، وقالت له لتجيب عن سؤاله عن الفرق بينه وبين صايل الكسار الذي يملك والده القرية والأرض والناس أن صايل أتى به طائر بجع كبير في سلة أزهار ملونة... كان حمدان يعرف الحجل جيداً، لكنه لم ير البجع إلا في أسراب محلقة في أعالي السماء، ففهم الفرق بينه وبين صايل دون المزيد من الشرح!

الحجل أتى بالأشرم صغيراً ككل الصغار... يبكي طلباً للرضاعة، وراح يحبو ويبعثر ما تقع عليه يداه من أواني الدار القديمة المتهالكة، ثم راح يمشي ويتعثر، ثم يمشي دون أن يتعثر، حتى وصل في مشيه إلى ظلال ذاك الحائط الذي ربما بناه جدُّه أو جدُّ جدِّه... هناك اكتشف ما يخبئه الحائط من آفاقٍ ملونة وألعاب سمع بها ولم يرها إلا في ظلاله، وثيابٍ زاهيةٍ قادرةٍ على تغطية عريه الذي لا تقدر مزق ثيابه على تغطيته، وقادرةٍ على إظهاره إنساناً آخر... إنساناً مثل شيخ البلد الكبير أبي صايل الذي ينحني كل أهل القرية عند قدومه... ينحنون له أو لثيابه!!

إلى تلك الظلال كان يهرب من مواسم الحراثة والحصاد ومن جمع الحطب للتنور أو لنقرة الجمر في المضافة، حين كان يمكن الاستغناء عن عمله لصغره، ليلهو بكل الروائع التي اعتقد لفترة أن الحجل كان يأتي بها لإسعاده، داعياً العديد من أصدقائه لمشاركته اللعب واللهو! ويوماً بعد يوم راحت يد الأعباء اليومية تضيّق الخناق عليه وتقلل من فرص سعادته مع أحلامه المنبثقة من الحاكورة المهمَلة... ويوماً بعد يوم راح حمدان الأشرم يكبر، فراحت عيناه تعجزان عن رؤية كل الألق والضياء المختبئ في ظلال الجدار، لكنه كان يلمح كل يوم بعض الأطفال يتسللون قافزين فوق الحائط إلى الحاكورة، فيغض الطرْف عن تسللهم حتى يأخذوا ما يريدون مما كان متأكداً من وجوده، ويمضوا صاخبين! إلى أن كان يوم حدث فيه ما حدث...

*

الفزع راح يرفس قلب شيخ البلد، ثم راح يعتصره مع كل ثورة تمرد يبديها ولده همام! فهذا الجدار اللعين إما أن يفضي بولده إلى الجنون، وإما أن يدفع الولد لدوس كلمة الشيخ التي لم يتجرأ أحد من قبل على دوسها!

- لن أسمح لأحد أن يمرّغ مشيئتي في الوحل... حتى لو كان ابني!!

بعد ساعة فقط من اتخاذ صايل الكسار لقراره، كان رجاله يندفعون كالثيران الهائجة نحو دار حمدان الأشرم لهدم حائطها، حيث كان الأطفال في انتظارهم لمنعهم، فمنذ دقائق فقط أتاهم همام لاهثاً وقد اغتسل بعرقه:

- يا أولاد... يا أولاد...

وحاول التقاط أنفاسه:

- أبي أرسل الرجال لهدم الحائط...

وصرخ الأولاد بذعر:

- ماذا تقول؟!

واندفعوا يريدون الدفاع عن أحلامهم، وقد حمل كل منهم حجراً أو عصا سلاحاً ضد رجال الكسار... حتى سليمان كان خائفاً من أن يفقد كرته القماشية ومستعداً لمواجهة الكسار نفسه لحمايتها! وحتى الفتيات أردن الخروج للدفاع عن أحلامهن، لكن أيدي الأمهات انغلقت ككماشات مذعورة قاسية على أيديهن لتمنعهن من الخروج، فانفجرن ببكاء اعتصر الدموع من أحجار القرية الصماء...

لكن رجال الكسار المحقونين بحقده على الأحلام وبخوفهم من بطشه، انتزعوا الأولاد بقسوة من تشبثهم بوقفتهم أمام الجدار وراحوا يبعثرون أحجاره في الحاكورة وعلى الطريق، بينما كانت صرخات حمدان وتوسلاته لهم للتوقف عما كانوا يقترفون تغطي الحجارة بطحالب رمادية باهتة، وتنشر بين الأطفال خوفاً غامضاً من فقدان الألوان التي لا تبهت!

*

عـدة أيـام مـرت والأطفـال يمضـون سـاعاتهم متسـكعين علـى ضـفاف البيادر أو قرب البركـة، يقـررون فجـأة الـذهاب لرؤيـة مـا آلـت إليـه أحلامهم تحت الحـائط المهدّم، ثم يقـررون أن لا يـذهبوا كـي لا يخسـروا أملهم في أن تكـون أحلامهـم حيـة نابضـة بـين الركـام! لكـن شـوقَهم الطفلـي غلـبهم، وسـأمَهم من ترهل ساعاتهم التي كانت مشدودة بلهوهم ومرحهم طوال اليوم دفعهم للذهاب إلى ذاك المكان الذي ظل، منذ استطاعوا الانفـلات من قيـود الحبو، محجّتهم اليومية!

لم يتصوروا أنهم سيعيشون كل تلك السعادة أمام ذاك المشهد! كانت الكرات والدمى نابتة كالفطور في ظلال جثث الأحجار التي خلّفتها مجزرة رجال شيخ البلد!!

*

لم يجد همام كلمة يعتذر بها للأولاد عما فعله والده بهم، فـأطرق أمـام صمتهم بانتظار أن يقرروا الشكل الجديد لعلاقتهم به، لكنهم فـاجؤوه مـن جديـد بمـا لم يتوقـع! فقـد تقـدموا منـه واحـداً واحـداً ليربتوا علـى كتفـه مـع ابتسامة ارتسمت على وجوههم وأضاءت سُمرتهم، فهبّ معهم لحصاد الأحلام مـن مكمنهـا، تـاركين للفتيـات اللـواتي كـنّ يحُمْـنَ بخجـل حـول المكـان حصتهن مما أنبتت الحجارة القاسية، ومن لذيذ أصناف الطعام لهن ولِبناتهن!

*

شيخ البلد الكسار راح ينفث النار من عينيه ويحرق بها وجه ابنـه الـذي لم يـترك عادتـه القديمـة في الهـرب مـن الـدار لمشـاركة الأولاد في لهـوهم الشيطاني!

- ألم أدمّر ذاك الحائط؟!

ولم يسمع إجابة، فشد قبضته كأنه يشد عنان غضبه...

- فإلى أين تذهب إذاً؟!

ومرة أخرى لم يسمع إجابة، بل لمح في عيني الصغير نظرةَ قوةٍ متحدية قرر أن يكسر شوكتها قبل أن تقسو وتقوى، فأرخى قبضته عن العنان المشدود ليصرخ الولد طالباً الرحمة تحت الصفع والشتم والتهديد بالمغارة...

- ما زالت الألوان تتسلل كالنبع من شقوق الأحجار التي بعثرها رجالك...

وفتح الشيخ حنجرته بالصراخ الذي سمعه أهل القرية جميعاً:

- مستحيل...

وكان قرارٌ جديد...

*

هذه المرة استغرق تنفيذ القرار وقتاً أطول... فقد انتظر صايل الكسار وصول الجرافة التي استدعاها من المدينة أكثر من يومين...

لم يكن أهل القرية قد شاهدوا من قبل كائناً بمثل هذه الضخامة! وسرى الهمس بين الأولاد...

- انظروا... إنه أكبر من الجمل!!

- وانظروا إلى عجلاته... إنها تكفي لصناعة أحذية كاوتشوك لكل أهل القرية!

- بل وتزيد...

ونظر كل منهم إلى قدميه الحافيتين المتشققتين بحسرة عميقة، ثم راحوا يتخيلون كل أهل القرية المتجمعين لرؤية المجزرة الجديدة وقد ارتدى كل منهم حذاء جديداً، بينما ظلت الجرافة العملاقة بأقدام حديدية عارية!

- تصوروا لو أن هذه العجلة هي حذاء كاوتشوك لرجل ما... تصوروا كم سيكون كبيراً!

وارتفعت أعين الأطفال من العجلة الحذاء باتجاه ساقَي الرجل ثم بطنه حتى كتفيه، لكنها لم تستطع رؤية وجهه البعيد في السماء!!

أشار شيخ البلد بيده لسائق العملاق المعدني إلى حاكورة الأشرم وحائطه المهدم، فاتجه بوحشه الهادر ليقلب الأرض والأحجار والدار أمام أعين كل أهل القرية وعينَي الأشرم المقيّد بأيدي رجال الكسار الحديدية!

*

حمدان الأشرم بكل ضخامته وجبروت جسده شعر بسكين الذل والظلم تقطّع أوصاله، فراح قلبه الممزق يخبو مع ابتعاد الجرافة على الطريق الذي أتت منه ومع خبو هديرها في البعيد...

ها هي نهايته تأتي كما توقعها... مقتولاً بيد الكسار حتى دون أن يلمسه! كان يشعر أن هذا ما سيحدث يوماً مذ كانا طفلين... حين كان يحلّق بأجنحة أحلامه كالبجع ليلتصق الكسار بوحول القاع وقد امتلأ قلبه حسداً وبغضاً للطير "الأجرب الفقير"! مرات حاول حمدان الأخذ بيد سحلية الكسار للطيران بين النجوم أو للغوص كالأسماك بين مرجان الطفولة الزاهي بالألوان، فصايل لم يكن مذنباً حين أتى به البجع وترك حمدان للحجل العاجز عن الطيران! لكن محاولاته كانت تتكسر مصطدمة بالصخر الذي قُدَّ منه قلب الكسار حتى في طفولته، وبالعتمة التي امتلأت بها عيناه...

*

لم يكن موت الأشرم بالنسبة إلى الكسار أكثر من خبر اضطره إلى رفع ثلاثة أصابع من يده ليشير بها بحركة نزقة قائلاً دون أن ينظر إلى من أبلغه بالخبر:

- ادفنوه فوراً...

ثم تمتم بينه وبين نفسه:

- قبل أن تضطرني رائحته إلى قتله مرة ثانية!!

*

الأولاد لم يعودوا أولاداً!! شاب شَعر كل منهم وتقوست عظامهم واضطروا للاتكاء على عصي يسندون بها سيرهم المتعثر... وراحوا يضحكون عندما يلتقون ضحكة غائضة قاحلة، مستذكرين شجاراتهم الصاخبة بالأمس القريب...

- كيف تتغير الأيام والأشياء بهذه السرعة؟!
- ها قد صرت كهلاً وأنت في الثامنة من عمرك يا عفيف!
- تتحدث كأنك لم تهرم مثلي يا هايل... كأنك طفل في التاسعة!
- منذ متى كنا نحسب أعمارنا ونتمنى أن تمضي سريعاً؟!
- منذ سرق الكسار أحلامنا ولم نستطع استعادتها!!
- ألا نستطيع...

ولم يكمل سليمان سؤاله فقد نظر الأطفال الكهول إلى بعضهم البعض وكأنهم اكتشفوا الاكتشاف نفسه في اللحظة نفسها...

*

منذ أن كان الاكتشاف صار الأولاد يمرون أمام عينَي الكسار وقد هدتهم الكهولة... متثاقلين.. مترنحين... بثيابهم البالية وأعناقهم المنحنية، فكان يحس أن قلبه يرقص مع تأوههم ولهاثهم التعِب! فقد فعل بهم ما عجز عن فعله بحمدان الأشرم عندما كانا طفلين! لكنه كان عاجزاً عن رؤية عيونهم التي أخفوها عنه لعجزهم عن السيطرة على بريقها!

فعلى مرِّ أيام عديدة، مرةً متخفين بظلام المساء ومرة بحرِّ الظهيرة ومرة بالفجر الباكر، كانوا ينقلون الحجارة المبعثرة إلى مكان بعيد دون أن يحس بهم أحد، وقد أهداهم اكتشافهم وأملهم الجديد قوةً عظيمة، ليبنوا بها مخبأ جديداً لأحلامهم...

حتى همام بن الكسار تظاهر أمام والده بالانهيار مثلهم كي لا يضطره جبروت أبيه للاعتراف بالمخبأ الجديد... المخبأ البعيد لأحلامهم، حيث نثروا بذورها الجديدة التي استلّوها من قلوبهم، فراحت تتفتح غير ناسية جذورها

الأولى التي لا تزال تشق الركام نحو النور في حاكورة حمدان الأشرم لتعود يوماً إلى سابق خصبها... لكنهم لم ينسوا هذه المرة أن يزرعوا بين ورود الأحلام أشواكاً وسكاكين كفيلة بتمزيق أيدي الكسار ورجاله وعجلات الجرافات إذا ما حاولت اقتلاع الأحلام من جديد!!

على مقام الحب

تجارب

قاطع رنينُ الجرس المضطرب رقصها المجنون مع الموسيقا الصاخبة... كانت قد أفعمت نفسها بتجربة الرقص مع موسيقا الراب وترديد قوافيها وأغانيها المنفلتة من اللحن، ثم انتقلت منذ أيام فقط إلى تجربتها الجديدة في الرقص والغناء مع صخب الروك وحدّة - وسرعة - إيقاعاتها ودرمزها المجنون!

فتحت الباب لتطالع وجه أخيها مكسواً بالحزن والخوف والتردد... انتقل إليها الخوف بالعدوى:

- ما بك؟! هل أصابك مكروه؟!

ردّ عليها صارخاً بكلمات لم تسمعها وسط الضجيج المنبعث من أجهزة الصوت الهادرة...

- لم أسمعك... أخبرني... ما الذي جرى؟!

وظنت في المرة الثانية أن الضجة أوصلت إليها العبارة مغلوطة:

- لقد مات عابر...

سحبت أخاها من يده لتدخل به إلى الشقة وتضغط على زر إطفاء الضجة:

- هلا أعدت ما قلته...

وبصوت منخفض هذه المرة دوت كلماته في أذنيها:

- تعرض زوجك لحادثٍ قتله...

لم تصدق ما سمعت، فهل للهدوء الذي بدا ثقيلاً جداً بعد كل ذاك الصخب قدرته على طمس الكلمات مثل الضجة التي كانت تملأ المكان؟!

لبست حدادها الثقيل وبكت قرب جسده المسجى وعينيه المغمضتين... راقبت عيون النادبات الباكيات وصرخت مع ترانيم حزنهن، ثم شيعته بالكثير من اللهفة والألم والولولة، ثم راحت لأيام، بكل وقار الحزن، تستقبل المعزين وتشكر مشاركتهم لها مصابها، ثم طلبت العزلة...

وفي عزلتها عادت إلى تجربة حبها معه... لقائهما الأول... اللمسة... النظرة... اعترافه المرتبك... سعادتها وتمنعها... ثم انطلاقها معه في رحلة الشغف والجنون... مكالمات الهاتف التي تبسط مداها طوال الليل حتى يوقظهما الفجر من غفلتهما... لقاءات الشوق بعد فراق ساعات... القبلة والعناق والخصام والعودة مع شغف أكبر وتولّه أشد...

عادت إلى اللحظة التي أمسك فيها يدها طالباً أن تكون شريكة حياته كلها... وعلى الرغم من أنها كانت تنتظر تلك اللحظة وتتوقعها، فقد احتارت فيما ستفعله! أتعيش تجربة القفز فرحاً وهي تعلن موافقتها دون تردد؟! أم تعيش تجربة الدلال الذي يؤجل طالباً فرصة للتفكير لتراقب بكثير من الحماسة عينيه وصوته وردود فعله إزاء طلبها؟! كم من حياة يتوجب على المرء أن يعيش حتى يتمكن من عيش التجارب كلها؟!

وفي عزلتها ابتسمت لكل لحظة تذكرتها معه في الشهور القليلة الماضية... التحضير للزفاف... فستانها الأبيض الذي تهادت فيه كغيمة قربه... جنون فرحهما ورقصهما وعناقهما وسط فرح المدعوين وحماستهم... جنون ليلتهما الأولى... تفاصيل الحياة المنزلية والأسرية الجديدة المذهلة... وصولاً إلى اللحظة التي ظنت أن أخاها يمازحها، فلم تصدق نبأ موته، وضحكت حتى هزها من كتفيها ليجبرها على أن تصدق أنها ستعيش تجربة جديدة أتت مبكرة أكثر مما توقعتها!! هنا عاد الحزن للتسرب إلى روحها هادئاً... دافئاً هذه المرة... لكأنه لم يكن تياراً جارفاً حارقاً منذ أيام فقط! بحثت في مكتبته عن قصائد الرثاء وقصص الحزن... قرأت الخنساء مطولاً وهي ترثي

أخوتها، وقرأت ابن الرومي في لوعته على واسطة عقده، وشكسبير ينعي الحب والصداقة ويقتلهما، وميخائيل نعيمة في يومه الأخير ومرداده وسبعونه، ووقعت على تحليل فرويد لغريزة الموت، وعلى تشريح فروم للتدميرية البشرية، وعلى موعظة ألبرت شفايتزر ودعوته إلى المحبة الحقيقية للحياة كهبة يومية للتغلب على الموت، وعادت إلى جحيم دانتي في الكوميديا الإلهية، ومنه قفزت إلى جحيم دان براون، وعادت عبر الشابكة إلى لوحات المرحلة السوداء في رسومات بيكاسو لتتأملها طويلاً وتعيش تفاصيل ألوانها، ولتجد في خضم بحثها المجنون ما ألهب مشاعرها مع موسيقا المسيح لهاندل والصوت السماوي لكورالها، ومع أغنية بهجة العيش لإوان ماكول يودع فيها قبل موته كل ما صادف في حياته، ومع الترانيم الفيروزية في القداسات الدينية، ومع جلال ووقار صوت عبد الباسط عبد الصمد... وغيرهم وغيرهم...

مضت أيام طويلة على حالها تلك أثارت خلالها مخاوف أخيها الذي واظب على زيارتها مرات كل يوم، ليجدها في كل مرة غارقة في لون جديد أو كتاب جديد أو لحن جديد، وليحاول إخراجها مما غمرت نفسها فيه، لترفض في كل مرة معربة عن رغبتها في العودة إلى عزلتها وإلى ما كانت تعيشه قبل أن يقاطعها بمخاوفه ونصائحه ومحاولاته اليائسة...

إلى أن كان يوم، شعرت فيه أنها امتلأت بتلك التجربة حتى التخمة، وبأنها ما عادت تستطيع الحصول على المزيد منها بعدما عاشت كل حالاتها ومشاعرها، وشعرت أن المنزل بات كئيباً حقاً بعد ما خلا من مثير جديد حتى لو كان حزيناً... عندها نضت الثوب الأسود عن جسدها... أعادت الكتب المتراكمة على الطاولة إلى رفوفها... محت ما تراكم على محرك البحث في حاسوبها من عناوين الموت والحزن والأسى... أعادت إنارة البيت بكل ما توفر فيه من أضواء... بحثت قرب أجهزة الصوت عن آخر قرص مضغوط كانت ترقص على نغماته، لتعود وتكمل تجربتها التي تمت مقاطعتها مع موسيقا الروك...

هل ستعرفني يا أبي؟

اليقظة الأولى:

الآن... بعد أن تحول جسدي إلى حقيبة عاجزة عن حمل روحها، صرت مجبراً على الرحيل إليك! فهل ستعرفني يا أبي؟! هل ستقرُّ بي ابناً بعد كل تلك السنوات... بعد كل ذاك العناد؟!

ما زلت أذكر، على الرغم من الارتجاج الذي سببته لي الصدمة، "لونغا" فرحتك يوم أشار ابنك الصغير ذو السنوات الست إلى ذاك العود المعلق في ثوبه الجلدي على الجدار... حملته واحتضنته، وكدت تطير به فرحاً، ثم أنزلت كنزك الذي لم يتسنَّ لك أن تنعم بجواهره كي تهديه إليه! تأملت العود طويلاً كأنك تتأمل عائداً من هجرة حسبتها لن تنتهي، ثم تأملت صغيرك يحتضنه فيبدو أصغر من أن يتمكن من حمله، ثم انشغلت طويلاً بشد أوتاره كأنك تشد من جديد أوتار عمرك المتراخية أو المقطعة، ومضيت مع صغيرك في رحلة خلتها ستفضي إلى معزوفة تزين السنوات العجاف بخضرة اللحن وترقرق الإيقاع...

اليقظة الثانية:

يتسلل النور إلى عينيّ من جديد... مكرهاً أفتحهما، متمنياً ما بات مستحيلاً! لماذا لم يتسلل إليهما من قبل؟! لماذا لم أفتحهما من قبل؟! وأراك... أراك من جديد يا أبي... لماذا تعود إلي بكل هذا الإلحاح وأنا الخجل حتى من أن أتذكرك؟! وأرى ذاك الصغير... علمْتَه النزر اليسير الذي كنت تعرفه... كيف يمسك العود والريشة، وأماكن الأصابع على الأوتار، والأبعاد،

ومعزوفات بسيطة، فوجدته متلهفاً كأرض عطشى للمزيد... طلبت من أحد المدرسين أن يزوره أسبوعياً ليعلمه... أنفقت الكثير مما كنت تناله من عمل مضن كي تصنع حلمك وما كنت تراه حلماً له، دون أن تبخل أو تتذمر أو...

تطحنني آلامي وتدفعني إلى ظلام عميق...

اليقظة الثالثة:

يوقظني الألم... لا أجد أحداً حولي... سقف التوتياء يصدّ عينيّ مع بقايا أحجار بناء بنيت بارتجال وعشوائية لتلم شتات تشردنا! لم يكن هذا ما حلمتَ به لي يا أبي، لكنني أتيت إليه بقدميّ... بما كان قدميّ قبل أن يحطمهما سقوطي المدوي!

كانت سنوات قد مرت مع الأوتار وألحانها... مع تجليات الجمال والإبداع على أصابع فريد الأطرش ووديع الصافي ومنير بشير ونصير شمّا ومارسيل خليفة وغيرهم، حين ظهر أخوتي يا أبي!

كنت قد ضننت عليّ بأخوة توقعتَ أن يضيّقوا بئر الحياة وشظفها علي، فتركتني وحيداً... لكنني استجلبتهم ممن أحاطوا بي في المدرسة! رأيتهم أكثر انفتاحاً مني... أكثر "شجاعة"... أعلى صوتاً، وأقوى عضلات، فلحقَتْ مراهقتي بهم، متمنياً أن أصير مثلهم، لكن الثمن كان باهظاً... كان حلمَك الذي لم أدرك أنه حلمي أنا أيضاً إلا بعد أن أضعتُه!!

آه... تطبق ألواح التوتياء والأحجار المحطمة على يقظتي فتحطمها...

اليقظة الرابعة:

أفتح عينيّ من جديد... أسمع أصواتهم يديرون ظهورهم لي، وينشغلون بلعبة "ورق الشدة"، فيعلو صراخهم وتتدفق شتائمهم من بئر القهر والتشرد، ثم يضحكون... يقهقون... ليقنعوا أنفسهم أنهم ما زالوا أحياء! أعرف أنهم عجزوا عن وضعي في مستشفى، وقد حذرهم طبيب المصادفة من نقلي خوفاً من المضاعفات، لذلك لا ألومهم... لكنني أعرف أيضاً أن ما خططته لي من

طريق كان كفيلاً بإبعادي عنهم... بإبقائي في عالم آخر لا أستطيع أن أتصوره...

ما زلت أذكر سخريتهم بي وقد عرفوا بموهبتي وقدرتي على العزف!! دعَوني بالولد المدلل... دعوا التزامي بتمارين العود ومواعيد الدروس رضوخاً عاجزاً لأبي! شوّهوا صورتك في عينيّ وحوّلوك إلى وحش مسيطر مستبد!! فقررت... أو قرروا عني... أن أشتت الألحان بصخب التمرد... برفض كل ذاك الخنوع!!

أريد أن أعود إلى غيبوبتي... أريد أن أنسى!! أغمض عينيّ وأستدعي الظلام كي يلفهما!!

اليقظة الخامسة:

الألم ساكن بليد يستحوذ على الجسد وقوته... لو لم تتأرجح تلك "السقالة" مع هبوب الريح! أرغب في أن أبتسم! ألم تصر حياتي مذ حطمت عودك في وجهك تأرجحاً مع الريح؟! ألم تكن سقوطاً في بئر عميق لم أصل إلى قعره إلا أسفل ذاك البناء في بيروت بحجة اهتزاز "السقالة"؟! ألم أكن أنا من رميت نفسي في ذاك البئر، لألجأ في أحيان كثيرة إلى اتهام أخوتي والذئب؟! والذئب وأخوتي أرحم من عنادي... من صلفي أمام دموعك وأنت تلملم نثار أخشاب، كانت حلماً فصارت حطباً لو علمت أنني سأصطلي بنيرانه طوال سنوات عمري التالية ما نثرته وما أشعلته!

وها أنا الآن... بعد عشرين سنة... أحس بنيرانه تكويني وتدفعني من جديد إلى غيبوبة حارقة!!

اليقظة الأخيرة:

أشعر أنك بتَّ قريباً يا أبي... قاب نفسين أخيرين يرفضان إلا أن يجهدا صدري الذي عاف أنفاسه ونبضه وبات متشوقاً إلى لقائك! أعترف أنني لمتك كثيراً! لماذا لم تمنعني؟! لم تتصدّ لحماقتي؟! لماذا لزمت الدمع وتركتني أراود البئر على نفسها حتى هممت بها وهمت بي؟! آنذاك لحقت بأخوتي إلى

ليبيا وإلى لبنان، فوجدت البقرات العجاف يرعين في كل صوب يممت نحوه... وانتظرتك أن تناديني... أن تنقذني من سجودي عند كل حجر عثرة أصادفه راضخاً للشمس والقمر والكواكب في تقلّب أمزجتها مع مسيرة تشردي ومكابرتي! لكنك لم تمدد يداً، حتى وجدتُ نفسي دونك يوم آثرت الرحيل، ربما إلى عالم أقل جحوداً... أقل نكراناً... أقل دموعاً... عالمٍ أرى نفسي في هذه اللحظات ألج بوابته، فينتابني فرح عارم... لا تصدق ما قلته يا أبي! فأنا لست مجبراً على الرحيل إليك... فأنا أطلّ للمرة الأولى من بئر سقوطي الطويل، سعيداً بانفتاح هذه البوابة التي ظلت موصدة في وجهي دهوراً! لأنك ستكون وراءها... فلربما تمكنتُ من أن أعانقك... أن أطلب صفحك... أن أمسح دموعك... فهل ستعرفني يا أبي؟! أنا يوسف يا أبي!!

أنصاف

" نصف ما أقوله لك لا معنى له ، ولكنني أقوله ليتمّ معنى النصف الآخر..."

جبران خليل جبران

نصف بداية

كانتا في الحافلة المكتظة تجلسان متجاورتين، وكان يقف قربهما ، يرشف من وجه إحداهما النظرة تلو النظرة دون أن يرتوي... وكانتا صامتتين فلمح في رأس كلّ منهما تناقضاً خفياً مع ما في رأس الأخرى... و عند الموقف استوقفتا الحافلة التي كانت مسرعة ، وعانتا من الزحام قبل أن تقفزا عبر الباب إلى رحابة الطريق... وقبل أن يجلس مع شخص آخر على الكرسي ذاته الذي صار شاغراً ، لمح كتاباً كئيباً نسيته إحداهما ، فتناوله مواسياً وهو يرجو في قرارة نفسه أن يكون الكتاب ملكاً لتلك الجميلة ، لا للأخرى، كي يفتح عبره باباً للتعارف والحوار...

* *

نصفا تعارفين

وصل إلى منزله مساء ، وانفرد في غرفته طالباً ألا يزعجه أحد ، وراح يقرأ الكتاب الذي سيكون وسيلته للتعرف إلى فتاة تمنى التعرف إليها منذ اللحظة الأولى لرؤيته لها؛ لكن خيبة أمله كانت كبيرة ، فقد أثقلت بصره خطوط تميز أسطراً جعلت من فتاته وحشاً لا يستطيع تصور العيش مع

ضـراوته، فتمنـى أن لا يكـون هـذا الكتـاب لهـا، وألقـى بـه علـى السـرير المجاور، فظل الكتاب مهدوداً إلى أن عاد صاحب السرير...

- لمن هذا الكتاب؟!

- إنه لفتاة لا أعرفها...نسيَته في الحافلة... غداً أعيده لها...

- ولماذا تلقيه هكذا؟!

فراح يقص على أخيه ما يدور بباله بلهجة تحاول التهرب من نبرة الخيبة دون أن تفلح، بينما تناول أخوه الكتاب مفكراً بأن هذه الفتاة قد تكون فتاة رائعة، ثم راح يبحث عما أخاف أخاه إلى هذا الحد، فوجد فيه ما اعتبره كنزاً لم يتوقع أن يجده، فقد كانت عباراتٌ كثيرةٌ مميزةٌ مستلقيةً على أسرّة من خطوط بالقلم الرصاص خطتها يد رقيقة، فاستأنف التعرف إلى فتاةٍ ما قبل أن يلقاها أو يكلمها، مادّاً بتلك الخطوط الواهية جسوراً متينة بينه وبين روح راح يغوص في تلافيفها... فهذا الخط هنا يكلل عبارة مفعمة بحب الحرية والتطلع النهم إليها، وتلك العبارة تنسل برقة الدفء لتكمل بناء الروح الزاهية، وهذا الخط المنكسر يرفض الظلم والاستعباد ويصرخ بعد عدة عبارات ثائراً مطالباً بالعدل وبالحق... وهكذا استمر في قراءته لكتاب غريب التقاه مصادفة حتى شعر نحوه بالحب والألفة، بل وشعر نحو صاحبته التي لم يكن متأكداً من هويتها بحب لم يخبره من قبل... حب من القراءة الأولى! وراح يحلم...

* *

نصف حلم

نصف خصام:

- أما زلت تقرئين ؟!

- أنا أعيش !

- وأي حياة تحيين ؟! ما الذي تجدينه بين أكوام الكلمات؟!

- أجد سبائك من التجارب والأفكار...

- فلنخرج الآن قبل أن تثقلك السبائك...

- وهل أنهيت إخفاء وجهك تحت...

- ما أفعله بوجهي مستخدمة المساحيق تفعلينه بروحك مستخدمة الكتب...

- الإخفاء لا يتساوى مع الكشف...

- فلنذهب قبل أن نتخاصم...

علقت الأولى حقيبتها المحشوة بالمساحيق والمرايا والأمشاط بكتفها قرب الخاصرة، بينما ضمت الأخرى حقيبة كتبها إلى صدرها ثم أغلقتا باب الغرفة وباب الحوار معاً ومضتا...

نصف رهان:

استقلتا الحافلة وغادرتاها... وجد أخوه الكتاب وافتقدته صاحبته...

- هذا غريب! كيف أضعت ذاك الكتاب؟ أين نسيته؟!

- لا تقلقي... سيعود... فلا أحد ممن زرناهم أو قابلناهم يهتم بالاحتفاظ بغذائك الروحي، لأنه لا يشبع أحداً سواك...

- لماذا تصرين على السخرية بي؟!

- أنا أقول الحقيقة وأراهنك، وسوف ترين، فلا تغضبي أرجوك...

نصف لقاء:

مضى اليوم وأتى الغد، ومضت أيام وهو يتحين الفرص ليلقاها بمفردها... و أخيراً لمحها سائرة بكبرياء جميل، فاستوقفها بتهذيب شديد، وعرض الكتاب الذي كان يلفه بجريدة قديمة كأنه يخفي سراً...

- هل هذا الكتاب لك؟

فابتسمت وقد تذكرت رهانها مع أختها، وتطلعت في عمق العينين المترقبتين لذلك الشاب الذي لاحظت مراقبته لها منذ أيام، ثم أجابت وقد وقعت على حقيقة ما يخبئ:

- نعم إنه لي...

وتناولت الكتاب شاكرة... وفي محاولة لمنعها من الانصراف دون ترك ما يبرر الحديث لاحقاً، دفع بعبارة استوقفتها:

- كتاب جيد...

وبعد صمت قصير:

- والملاحظات التي خططتها تحت بعض عباراته متميزة جداً.

- صحيح ؟! شكراً...

وتذكر عبارة أخيه الواصفة لصاحبة الكتاب فكررها كالببغاء وقد شجعته ابتسامة الشكر:

- نعم... فهي تدل على شخصية متميزة أيضاً...

شعرت بالإهانة لأن حديثه عن التميز لم يكن يتناولها، بل يتناول أختها، فردت وقد دفعتها الغيرة ودون تفكير:

- ليس هناك ما يميزها أبداً، بل إنها أقل من عادية...

ومضت مسرعة، بينما ظل يتساءل عن سبب غضبها البادي، على الرغم من محاولته لإطرائها...

نصفا فتاتين:

- كيف حصلت على الكتاب؟!

- أحدهم وجده فأعاده...

- ومن يكون ؟ هل أعرفه ؟!

- لا... لكنه مسكين!

- لماذا ؟!

- لأنه يحب نصفينا...

- كيف ؟! لم أفهم...

- يحب نصفينا... نصفك المثقف الذكي، ونصفي الجميل الأنيق...

- ولكننا توءمان، مما يعني أننا متشابهتان تماماً في النصف الثاني...

- هذا ما تظنينه، لأن الحصول على النصف الثاني شاق كالحصول على النصف الأول...

نصف حيرة:

كيفما أشاح نظره في منزله وجد الأسئلة المحيرة تقفز في وجهه، فالجدران والمرآة والسرير والكتب، كلها تحولت إلى علامات استفهام...

- لماذا غضبت ؟! لماذا انصرفت ؟! هل أخطأتُ ؟! أم أن فتاة في مثل ثقافتها وجمالها يجب أن تكون قوية الشخصية بل ومتكبرة أيضاً ؟! هل أستطيع التفاهم معها ؟! هل يمكنني أن أحب امرأة يمكن أن تعشق الحرية والجمال والكتاب أكثر مني؟!

ومضت ساعات وأشباح تلك العبارات تقفز حوله هازئة به، بينما كان أخوه يراقبه ويبحث عن تلك الفتاة في عينيه الزائغتين...

نصف مشاكسة:

- انظري... هاهو هناك يراقبنا...

- أهذا هو؟! هل أتركك كي يحدثك؟!

- لماذا لا أتركك أنا كي يحدثك؟! ألا يحب نصفك كما يحب نصفي؟!

- لكنه يعرفك أنت، أما أنا...

- تعالي كي نخرجه من ترددة...

لم يصدق عينيه... عبرتا الطريق واتجهتا نحوه...

- صباح الخير...

- صباح الخير...

- أعرّفك بأختي...

- أهلاً...

- نسيت أن أخبرك أن الكتاب لها، وبأنني لم أقرأه، وهي لهذا تريد أن تشكرك على إعادته لها...

صدمته المفاجأة، وفكر في شقيقه الذي أبدى إعجابه بفتاة الكتاب أكثر من إعجابه بوصف جمال الفتاة الأخرى... وبعد عبارات عديدة مرتبكة ومترددة وذات دلالة ما، انصرفتا وتركتاه تحت وقع مفاجأة لم تقدّرا قوة أثرها...

نصف حب:

- الكتاب كان لفتاة أخرى، أما الفتاة التي حدثتك عنها فلم تقرأه أبداً...

- ومن هي صاحبته؟!

- أختها... هل ترغب في التعرف إليها ؟!

- أعتقد أنني قد تعرفت إليها...

- هل يكفي التعارف عبر كتاب؟!

نظر في اتجاه لا يرى فيه أخوه نظرته، وفكر وقد اعترته الحيرة:

- ليته كان تعارفاً فقط...

* *

نصف يقظة

صدمه الإيقاظ وهو يحث خطى القراءة والحلم فوق الخطوط الرقيقة...

- أراك منسجماً في القراءة...

- لا بد أنها فتاة رائعة... متى ستعيد الكتاب؟

- ربما غداً...

وعاد يحلم دون أن يزيح ناظريه عن الكلمات المتراقصة...

* *

نصف اكتشاف

لمح حلوته في الحافلة المكتظة ذاتها، فشق لجسده طريقاً بين الأجساد نحوها:

- مرحباً... بالأمس نسيت هذا الكتاب حيث كنت تجلسين في الحافلة...

- آسفة... هذا الكتاب ليس لي...

- قد يكون لصديقتك التي كانت جالسة بقربك...

- أنا لا أعرفها...

ثم أضافت بجفاء:

فابحث عنها...

شعر بالإهانة وبحث عن الأخرى، ووجدها في الحافلة ذاتها:

-هل هذا الكتاب لك ؟

نظرت نحو الكتاب بريبة، ثم أفصحت نظرتها عن معرفتها به:

- لا ليس لي... لكنه كان مرمياً بالأمس على الكرسي الذي جلست عليه، وقد تركته فقد يعود صاحبه لأخذه...

* *

نصف نهاية

- لم يكن الكتاب لأي منهما...

- صحيح ؟!

وهز رأسه مبتسماً بألم الفراق، ثم تناول الكتاب وهو يردد في نفسه:

- توءمان!! توءمان!!

على مقام الحب

مايسترو

وحيداً ظل يدفع روحه على بحيرة متجمدة، فارداً ذراعيه على أمل احتضان روح هائمة فوق التجمد ذاته، مع لحن "اللونغا" ذاته المتسارع بجنون طموحه الذي لا ينضب، وظل قلبه ينوح مع ناي "الدوغا"، مفعماً بحزن الأمل التائه في دائرة ضيقة فوق بحيرة متجمدة ...

باص

طويت السنوات انتظاراً إثر انتظار، لأترك في كل محطة نغمة كان يمكن أن تصبح سيمفونية حياتي، لولا هربي منها إلى حلم بعيد؛ حتى اكتشفت أنني أضعت أجمل السيمفونيات وفقدت حرارة الإيقاع الدافعة إلى نشوة الروح...

كل امرأة قابلتها سمعتها تشويشاً على رتابة لحني المتكرر نحو "قفلة" أجهلها... كنت عاجزاً عن أن أسمع لحنها بمفرده دون تشويش صخبي أنا... إلى أن تعبت... ورحت أعيد إلقاء عيون الذكرى على النغمات المتشردة في محطات عمري القاحلة، لأجدها قد رحلت مع مسافرٍ تذوقها دون غيرها...

كان ركام السنوات قد قتل كل القابعين تحته، إلى أن دقّ قلبي "موتسيكاتو" لقائها ...

مايسترو

انسابت مع بحيرة البجع على رؤوس أصابعها كفراشة موعودة بالحب مع أحد انعطافات اللحن الهادئ الصاخب، لتلتفت مع كل نقلة، بكبرياء الباليه المتواضعة إلى جهة يمكن أن تحمل إليها فارساً بثوب أبيض على حصان لحوافره إيقاعات بيضاء...

سوبرانو

كرهت حتى رتابة الموسيقا على جمالها، وكانت النغمة الجامدة تملأ رأسي بصداع يكاد يفجره، وكل من قابلت من الرجال كان نغمة ممتدة نحو لا نهاية الصداع... أحدهم يحاول امتلاكي بعلامة دووووو... يعجز عن تغييرها ليطيل بإطالتها المسافة التي تفصلني عنه، ثم يأتي الآخر ليبدع في التغيير وليهديني بعد عناء عظيم علامة الري ي ي ، ثم يأتي أحدهم بعلامة المي ي ي... ثم... ثم... حتى يأتي أكثرهم إبداعاً ليضفي على النغمة الرتيبة ملل إيقاع "المارش" الرتيب... وظل في صدري أمل في أن ألتقي بمن يفجر في روحي ضربة القدر، في سيمفونية لا تنتهي من مفاجآت أوركسترا الروح... إلى أن اهتزت أوتار قيثارة نبضي بلقائه...

مايسترو

على صغر الحجرة التي جمعت نغميهما المنفصلين، بدت لهما دار أوبرا فسيحة، لاحتواء حوارية الروحين بين الحضور وبين الغياب...

ديو

- حضرتُ الدورة التدريبية التي دُعيت إليها في وقت فرضت عليّ مشاغلُه التغيبَ عن العديد من دروسها، وهناك سمعت اسمها للمرة الأولى، رنةً من جرس يقرعه ملاك بعيد...

- حضرتُ الدورة... في الوقت ذاته... وهناك سمعت اسمه للمرة الأولى، حلماً تسلل إلى روحي مع ألف ليلة وليلة من أنغام شهريار...

- نادَوها للتفقد... لم تُجب... فتشتُ عن امرأة قد تصبح محطة رحيلي الأخيرة... كانت غائبة، فصرخَت ربابة روحي حزناً، لكن القلب همس عبر لحن بعيد: ستأتي حتماً !!

- لم أحضر في اليوم الأول... حضرت في الثاني... نادَوه للتفقد... لم يُجب... فتشت عن رجل قد يصير فارسي ذا الثوب الأبيض... كان غائباً، فانشدّ قوس وتر الحزن في روحي، بينما همس القلب عبر لحن بعيد: سيأتي حتماً !!

- لم تحضر اليوم على الرغم من أنها حضرت بالأمس... إذاً سأحضر غداً، فلا بد أن تأتي بعد غياب اليوم...

- غبتُ يومين متتاليين كي أحضر في اليوم الذي لا بد أن يأتي فيه، فلماذا لم يأت؟!

مايسترو

غاب فحضرت... غابت فحضر... وانشدّت روحاهما إلى حد التمزق، خصوصاً مع اقتراب معزوفة الدورة من خاتمتها، وأوحت لهما هارموني الروح المرافقة لصخب التوتر بالمشاركة حتماً في اليوم الأخير، فحضراه معاً، ليصنعا بصمتهما كونشرتو الحب من الدهشة الأولى...

نوتة

" إذاً فهذه أنتِ !!! "

دندنت روحه بفرح وهو يستنشق عذوبة نغمتها...

" إذاً فهذا أنت !!! "

دندنت روحها بفرح وهي تحضن صورته في حنايا نبضها...

وانطلقت بين قلبيهما "فلامنكو" المطلع...

همّ بأن يخاطبها، فلاحظ حركة شفتيها تخبئ كلمةً توقعَها فانتظر...

كانت في اللحظة ذاتها تهمّ بمخاطبته، لكنها لمحت ارتعاش عينيه المحمّلتين بعبارة تمنّتها فانتظرت...

جرب غير مرة، وجربت غير مرة، لكن اتساق إيقاع الروح بينهما جعلهما في كل مرة ينتظر أحدهما الآخر... وانسابت الساعة بين عيونهما المشدودة بأنامل دوزان خفي... وانتهت الساعة، فاضطرم الإيقاع في القلبين، وصار لا بد من تحويل النوتة المرئية إلى لحن مسموع... ظن أنه سيسبقها، وظنت أنها ستسبقه، حين انطلق الصوتان معاً ليسطرا البداية:

- أين كنتِ؟!!

ولترفرف الزقزقات من داخليهما مخلّفةً كل الآلات الموسيقية حطاماً أمام سعادة الرجل الأول والمرأة الأولى وارتباكهما... باكتشافهما العظيم...

توارت الكلمات الصبّة خجلى في موشحات العشق المستتر مع خصور السماح المتهادية، وترقرقت " نينوى" بجلالها الأسطوري، لتصنع مع كل مقطع متكرر لحناً جديداً ينقشه في الصخر تطلّع متصاعد نحو قمة لم تكن حتماً للهلاك...

الموديل

بينما سحبها إنهاك سهرٍ طويل إلى قعر نومٍ عميق، دفعني ألمٌ دافق إلى قمة صحو متوتر، فرُحْتُ أبحث في وجهها عن ملامح تشي بحلم لن تفرده أمامي مع فنجان القهوة الصباحية كما كانت تفعل ريم...

*

" - كانت ابتسامتكِ رائعة هذه الليلة، فبماذا كنت تحلمين؟!

- كنت أحلم بكَ...

- ليتني كنت قادراً على زرع هذه الابتسامة على شفتيكِ خارج أبواب الحلم!...

- ليس لأحلامي أبوابٌ موصدة دونك ، فأنتَ أنتَ في داخلها أو في خارجها..."

* *

تعبتُ من تأمل وجهٍ نائمٍ لم تربطني بملامحه غير رغبةٍ فجّةٍ في الرسم، بينما كنت أسهر في حضرة وجه ريم النائم فاتحاً نوافذي لدخان سجائري وهموم روحي المتبددة...

*

" كانت تفتح عينيها أحياناً...

- أما زلت ساهراً؟!!

- ما زلت مسافراً! فلعينيك المغمضتين جاذبية المدن الذهبية الغارقة...

- وهل تنوي الغوص بحثاً عنها؟!

- بل أنوي الغوص بحثاً عني فيها ... "

* *

أتساءل الآن: لماذا أتيتُ بهذه المرأة إلى هنا؟! لماذا فتحت كل هذه الأبواب لمقارنةٍ كالحةٍ بينها وبين ريم؟! ريم... التي أخذت برحيلها ألواني... بترَتْ أصابعي وتركتني قلماً مكسوراً من الفحم... هل أقوى الآن على التمرد على رحيلها؟!! هل يمكن لهذه المرأة أن تكون مبضعي لاجتثاث ريم المثقِلة لألواني؟!!

*

" - لماذا لا ترسمني؟!

- الرسم استراق للّحظة، وأنتِ زمنٌ لا يُحَدُّ!.."

* *

والآن، هل يمكنني أن أشعر بالندم لأنني لم أرسمها؟! لو رسمتها لعاشت معي غباراً على ألوانٍ على قماش، بينما تعيش مع رجل رمادي غبار روح! أما الآن، فهي تعيش معي روحاً مقيِّدةً لروحي، ومعه جسداً يمكن لأي رسامٍ أن يرسمه...

*

" - هل ستتركين لي ما يذكّرني بك؟

- عاديٌّ أن يترك الراحلون للباقين شيئاً للذكرى..."

ولأنها لم تكن عادية، فقد تركت لي انعدام شيءٍ للذكرى، تركت لي انعدام قدرتي على ممارسة الرسم معها... فهل تملك هذه المرأة أن تلغي هذا الانعدام؟!

* *

لمحتُها منذ ساعات خلال تسكعي استجداءً لهواء أتنفسه بعد اختناقي بمشنقة الألوان المزدادة ضيقاً رحيلاً بعد رحيل... كانت باذخة الجسد، فتخيلتُها رداءً زيتياً لقماش متشبث بإطار، في غرفتي المرتحلة مع طقوس حزني...

تراها لمحت شهوتي للحظة خلقٍ فابتسمت، وتوقفت في دعوةٍ صريحة لأكلّمها؟! لم أعهد نفسي وقحاً كما كنت لحظةَ غرستُ عينيّ في عينيها:

- أريدك ليلةً كاملة!..

خبْرتُها الطويلة صدت عن وجهها وقع المفاجأة، فأجابت:

- لكل شيءٍ ثمنه...

*

كم كان ثمن رحيلك قاتماً يا ريم!.. بدأتُ بدفعه باسوادٍ طغى على كل ألواني، ما لبث أن تحول إلى رمادي بدائي عاجز عن مداعبة ريشةٍ متحضرة، وانتهى قبل المنفى باحمرارٍ متوقدٍ رافض للمصالحة مع الأبيض أو حتى مع الأزرق، وغير قابل للتجمد على لوحةٍ مثلجة، فراح ينسكب على لساني كلماتٍ ناريةً اقتلعتني من هناك، لتجعلني هنا لوناً فاسداً في علبة لا غطاء لها...

كيف استطعتُ أن أنفث من فمي كل تلك النار ، بينما كنت عاجزاً عن رسمها؟! وقد كنت أستطيع أن أبعث الخضرة في بيادر الغزل المحروقة، وتذكرت:

" – قبلكِ كانت حياتي ظلالاً باهتة، أما الآن فأنت ألوان حياتي...

ضحكَت...

- لو أجاد الرسامون في الرسم إجادتهم في التحدث لعجز كل هواة جمع اللوحات عن شراء لوحة واحدةٍ، لارتفاع شجنها!!..."

* *

أصرّت في طريقنا المسائي إلى غرفتي على الالتصاق بي لتلفَّ ذراعها حول ذراعي... بدَونا عاشقين ممتزجين كألوان مائية، بينما كان أحدنا لوحةً تشكيلية والآخر لوحة سريالية! كانت تضغط نهدها لأتحسس حلمته المتمردة منغرسة في ذراعي، ولأتذكر نهد ريم في لحظات تفجره وزئبقيته ولذته!

لماذا تصر ريم على العبث بذاكرتي في اليوم الذي قررت فيه أن أعود إلى ذاتي التي كانت قبلها؟! هل كانت تنوي أن تقف سداً بيني وبين عودتي؟! ربما، بعد دقائق، سأمتشق ريشةً كسرَتْها برحيلها لأخط على لوحة بيضاء لوناً أهرقَته مع فلول دمي... ربما، بعد دقائق، سأنتقم بجسد هذه المرأة المحنط على إحدى لوحاتي من جسد ريم الهارب من أصابعي...

* *

وصلْنا... فراحت تبعثر غربتها عن المكان باستطلاعه قطعةً قطعة... ما تبقّى مما وقعَت عليه عينا ريم لوحاتٌ مسندةٌ إلى جدار، وكتبٌ مبعثرةٌ على طاولة، أحدها كان يعيدني إلى ريم مع كل لقاء لعينيَّ بعينيه...

*

...فذاتَ يوم ضحكتُ ظناً مني أن ما قالته مجرد دعابة، دون أن أتخيل أنه رؤيا تفرّدَت في استشفافها...

" - ماذا تقرئين؟!

- قصة حب أخرق...

- فاتركيها وأقرئي قصة حبنا...

- إنها بالتحديد ما كنت أقرأ!.."

* *

لوحاتي وكتبي هي كل ما استطاع بعض أصدقائي أن يؤمّنوا لي حمايته من سكاكين الوطن التي أشهرها في وجهي فقط لأنني كنت

أحبه، أما السرير والطاولة والكرسي والستائر وغيرها فهي ما استطاع أصدقاء آخرون أن يؤمّنوا لي اقتناءه في صحراء المنفى...

لا أعرف كم استغرقَتْ في المرور اللامبالي على حميمية ذكرياتي، بينما كنت تائهاً قرب الباب مع خدرٍ يُخشّب جسدي، لكنني فوجئت بها تلقي حقيبتها على الكرسي لتبدأ بالتعري ببطء التفات النبات نحو الشمس... بدا جسدها أكثر إشراقاً بعد أن رمى غربال القماش عنه... اقتربَت مني بهدوءِ الجيوش الزاحفة ولعلعتها، حتى اخترقَتْ حدودي التي قاومْتُ كل محاولة بعد ريم لاختراقها فلمحتُ أدق مسامات جسدها، وشممت عطرها المختلط بعرقها... داهمتني روعة الأدغال، فتسللتُ في تدرجات الظلام الأخضر بحثاً عن منفذٍ للنور حتى كدت أضيع، لكنني دفعتها بيدين مرتجفتين استلقتا على خاصرتيها...

- ما لهذا أردتك!!

بدت مندهشة... ربما توقعَتْ لحظةَ افتراس عنيفة، أو لحظةً تغسل جسدها بدموع رجلٍ يبحث عن أمٍ أو عن وطنٍ... ربما توقعت فجوراً وبذاءة، مداعبة وحناناً... أما هذا الرد...

أضفتُ موضحاً:

- أريدك موديلاً عارياً للرسم!!

لم تكن كلمةُ "عارياً" ضمن مخططي، لكن اللحظة فرضَت شهوتها، فأردت تجريب لذة الانجراف في لون اللحظة غير المدروس...

تراجعَتْ خطوة...

- ليس هذا عملي، ولكن على كل حال لكل شيءٍ ثمنه!

لم أسألها عن الثمن الأول لأسألها عن الثمن الجديد، فما أسخف مثل هذه الأثمان أمام الأثمان التي دفعتُها هناك...

*

" - من أين تأتي بكل هذه الجرأة؟!

- قولي من أين تأتي بكل هذا الحب!!

- ألا تخشى السقوط؟!

- السقوط الوحيد هو الانهزام خوفاً...

- والموت؟!

- من يمت واقفاً يُسقِط قاتليه..."

* *

جلسَتْ على حافة السرير واتكأتْ بيدها اليمنى على وسادتي الوحيدة، ثم بسطت جسدها كما تخيلْتُه، روايةً من جمالٍ تعجز الألوانُ عن نشرها... جهزتُ لوحتي الجاهزة منذ رحيل ريم، وألواني التي لم تفسد بعد كما فسدت سابقاتها لنفاذ صلاحية صبرها، ورحت أتأمل جسدها ببلادة مراهق داهمته قبلةٌ ناضجة...

*

عندما كانت ريم معي كنت قادراً على رسم كل أجساد النساء عارياتٍ، محتشمات، راقصات، ثائرات، نائمات، إلا جسدها الذي اكتفيتُ برسمه بجسدي!... بعدها صرت عاجزاً عن الرسم بريشتي أو بجسدي، فكأن الآلة المختصة بالرسم في روحي قد تعطلت!!

* *

مضت دقائق قبل أن يستيقظ فضول الأنثى من خلال سؤالٍ يحاول تغطية مساحة بيضاء بألوان باهتة:

- ألستَ متزوجاً؟!

اخترقت مخليتي صورة المسيح معلقاً بالمسامير على جسد الصليب مولياً ظهره له، فأجبتُها:

- لست مصلوباً!!

- لماذا؟!

- لأن المرأة تبحث عن منزل قائم على الصخر، أما أنا فمركب مثقوب في عُرض بحر...

شعرتُ أني كاذبٌ حين اندفعَت بي أمواج الذكرى نحو ريم...

*

" - أتتزوجينني؟!

- لا تكن عادياً، فأنا أحبك بقدر ما تختلف عن الآخرين...

- مصرةٌ أنت؟!

- سأتزوج أي رجلٍ غيرك، لأن كل الرجالِ رجلٌ واحدٌ وأنت رجلٌ آخر...

- فكوني للآخر...

- للرجال النساءُ، ولكَ الألوانُ، أما أنا..."

* *

وكأنها لمحَتْ ألمي، فصمتَتْ محافظةً على وضعيتها بهدوءٍ مغرٍ، بينما كانت ريشتي تدور فوق حاملة الألوان مازجةً كل الألوان في لون لا لون له...

خشيت أن تسأم من مراقبتي لها فحاولْتُ إيهامها بأنني أرسم، ولفرط ارتباكي رحت أخط على اللوحة لوناً ما...

بعد ساعةٍ غفت لتتركني مع جسدها العاري ووجهها المعبر عن حلم لن تفرده أمامي مع فنجان القهوة الصباحية كما كانت تفعل ريم، لكن تأملي لها ظل مشوباً بملل وتعب لم يشوبا يوماً تأملي لوجه ريم النائمة وجسدها، لهذا فقد ألقيت على جسدها شرشفاً لا يضاهي الجسد نصوعاً، وقرّبْتُ كرسيي من الطاولة لأكتب على ورقة سمراء:

" لو تسنى لكل رسام ريم راحلة، لما تسنى لقماش أبيض أن يتحول إلى لوحة حية..."

ثم غرقتُ في تأملاتي...

* *

كانت قد مرت ساعةٌ على انديا‌ح ألوان الشمس على لوحة الليل، حين تركتُ الكرسي الذي لازمته باقي ليلتي، كي أحضّر لنفسي ولضيفتي فنجاناً من القهوة... وعلى وقع خطواتي استيقظتْ كما لو أنها في بيتها، لترتدي ثيابها دون استعجال غير مكترثة باللوحة التي يفترض أنني رسمتها...

كانت تبعثر شعرها على كتفيها أمام مرآة ممزقة حين دعوتها لفنجان القهوة...

- صباح الخير...

وجلسَت على حافة السرير قبالة عجزي لترشف من فنجانها مرارة ما صنعتُ...

أردت أن أسألها:

" هل أنت معتادة على تناول القهوة بعد كل..."

لكنني شعرت بعدائية السؤال... لماذا تبادر إلى ذهني؟! لأظهر لها قوة لم أعد أمتلكها؟! لأرد لها إهانة وجهتُها لنفسي عبرها؟! لأنتقم من ريم؟!!

*

" – أنت شديد العصبية هذا الصباح!!

- أنا شديد الاسوداد...

- لكنك كنت تعلم أنني سأرحل ذات يوم...

- ظننت أن لوحة حبنا التي رسمناها معاً ستبقيكِ...

- اللوحات لا تتشبث بأصحابها...

- ألا يتشبث أصحابها بها؟!

- لو كانوا يفعلون لما حمل رسام لوحة إلى معرض لبيعها!.."

* *

نهضَت... حملَت حقيبتها...

- يجب أن أذهب...

وكان في جيبي ثمن لم تحدده لليلتها عندي، فناولتها إياه لتدسه في حقيبتها قبل عدِّه، ولتتوجه نحو اللوحة التي أدارت ظهرها لنا لتقف قبالتها... كانت خطوطٌ من اللالون مبعثرةً في أرجائها، مما رسم في عينيها دهشة متفجرة، وسمعتُ السؤال يقفز من عينيها:

- أهذه أنا؟!!

ولمحتُ ريم ذات لوحة...

*

" - لا أفهم هذه اللوحة!

- ولا حتى أنا...

- كيف ترسم مالا تفهم؟!

- عندما أفهم نفسي قد أفهم انعكاس صورتها في لوحة!!"

* *

لم تقل شيئاً... نظرَت نحوي بعتب وابتسمتْ، ثم انسابت نحو الباب لتفتحه وتغيب...

شعرتُ بدمي يتخثر في أصقاع جسدي، وحدست أن إرهاقاً طويلاً سيلازمني، فنهضت بتثاقل لأحمل لوحتي التي لم تكن، وأضعها فوق لوحات عديدة تدير وجهها نحو الجدار، كانت كل منها مشروع لوحتي الأولى بعد ريم، لولا ريم...

على إيقاع الحرب

قصة حب

يحتقن فؤادك بالأحزان، فتبحث عن سدٍّ في الصدر تحطّمه، كي تتخلص من عبئها، حتى إذا أغرقتك في طميها! وتستحلس الظلمةُ في عينيك، حتى لَتتمنى أن تفقأهما، كي يتسلل شيء من الضياء إليهما، مع يقينك أن ما في خارجهما لن يزيدهما إلا سواداً! أقتنصُ شوقاً يتفصد من جبينك، تعجز عن تمويهه، لكتابة قصة مختلفة، تتشبث بها كقشة علّها تنقذك من الغرق في البحار الآسنة المحيطة بك! كل كلماتك في قصصك الأخيرة تحولت إلى مزيج عجيب من الألم والحزن والسخرية، ففرّ كل من حاول تذوقها من مرارتها، وكل أفكارك صارت كالعناكب بأرجل كثيرة متمفصلة تنسج الفوضى والهموم، لتزيد الرعبَ من شكلها الممسوخ، لدى من يرونها، مزيداً من الرعب من أن يعلقوا في خيوطها فتلتهمهم بمشنقة تشاؤمها! لهذا أراك تنبش في ركام حياتك، باحثاً عن قصص قديمة سابقة لهذا العصر والأوان، تحقن مستمعيها بجرعة من نسيان الحاضر ومن البهجة بما كان، وبما أنه قد كان، فبما يمكن أن يكون! وأقبض عليك متلبساً بابتسامة حين عثورك على ما تفسخ من أشلاء قصة حب قديم... قفزتَ مهلّلاً... ستكتب قصة حب... ستعيد بعثها من جدثها... ستزين كلماتِك القاتمة بألوانها الزاهية، وستلصق أوراقها الخضر على أغصانك اليابسة!!

من أين ستبدأ؟! لا بد لك من بصيص نور عجزت الكهرباء بانقطاعها المتواصل، والشمس بما برقع وجهها من دخان وسخام، عن أن تمداك به، ولا بد لك من ورقة وقلم، عُدّةً لكل من ينوي الكتابة، في زمن جفت فيه الأقلام ومزِّقت الصحف وصار المداد الذي تُكتب به حكايات الحياة اليومية دماً قانياً أو حالكاً! لكن الفكرة مدّتك بالقوة الكافية كي لا تستسلم

للظلام المضرّج... ستكتب القصة في رأسك، وسترويها لمن يطلب لحظة فرح عابرة، وسيتوجب عليك أولاً أن تجد أرضاً خصبة تزرعها فيها بعدما غزا التصحر عقلك وعواطفك، وأن تزيح جبالاً صخرية من القهر والظلم تربض فوق متر مربع من تربة خيالك، وأن تجد بذرة لتزرعها! جاهدتَ أياماً باحثاً عن بذرة زهرتك العطرة الجديدة، فلم تقع إلا على الشوك والحنظل! كيف ستكون البداية؟!

حسناء بارعة الجمال تخرج من جامعتها تحتضن ما يبدو كتباً، ووسيم مزهو بشبابه وتسريحته، ينطلق في مواجهتها، ليصطدم الكتفان وتسقط الكتب أرضاً (ويالِلكتب المسكينة التي لا تجد غيرها مستحقاً للسقوط)، لينحني بطلا قصتك فوقها لخفض جناح ذلها على الرصيف، فتلتقي العيون وتتلامس الأيدي ويبدأ حوار... لكنْ انتظر... ألن تكون بداية مستهلكة طالما اجترتها قصص الحب؟! تهز رأسك هازئاً... فهل استطعتَ أن تحظى ببداية أخرى كي تترك هذه إلى ما سواها؟! ثم تبرّر: الأفكار ملقاة بإهمال على قارعة الطريق... المهم هو طريقة تناولك وأسلوب صياغتك لها!! وعلى الرغم من أنك لا ترى فيما قصصت حتى الآن أسلوباً جديداً، تتابع المشهد بكثير من الحماسة، دون أن تنتبه إلى ما أجفلك فجأة، وألقاك أرضاً، حين انفرجَتْ دفتا كتاب لتُظهِراه كصندوق خال من الأوراق ومثقل بمسدس انتبه الوسيم إلى يد الجميلة وهي تسارع للإمساك به، فمد يده نحو حزام أناقته، ليطلقا النار، في اللحظة ذاتها، ويسقطا مضرّجين بدمائهما، بينما استمر الناس من حولهما يغذّون السير، غافلين عن قصة حب كانت وشيكة!!

مرة أخرى لن تستسلم... ستعود إلى قصص الحب القديمة... إلى قيس وليلى... إلى روميو وجولييت... الحبُّ ناضج... قوي... يكافح للاستمرار... ويهزم كل من يقف في وجهه! ومرة أخرى أيها المستعد بالحب والشجاعة والسيوف لمواجهة أحقاد القبيلة، تغفل عن أسلحة العصر، فتداهم بطليك البنادقُ والصواريخ وأسلحة الدمار الشامل، لتتركك صنماً مغروساً في مقبرة!

تصر على التحدي... تبتعد ببطليك عن العالم كله... تهرب بهما من القبيلة وفتكها... تجسّدهما شخصيتين سحريتين خارجتين من مخيلة طفل مبدع، لكنك تقف مشدوهاً أمام ما ترى... فقيس ما جاء يطلب ناراً، بل جاء يشعل البيت ناراً، وليلاه تستلذ بشواء لحمه بجمرها، وتتربص منتظرة نضجه حتى تنهشه! أما روميو فما عاد صلفه ليقبل بوقوفه الذليل تحت شرفة جولييته، فحضّر متفجراته لإسقاط الشرفة بمن عليها، بينما استعدت جولييت بأنيابها الذئبية للهبوط مع حجارة شرفتها على أم رأسه!!

تنتزع نفسك على الرغم من نفسك، وتقرر الخروج للبحث عن القصة في العالم الفسيح... تتردد طويلاً قبل الخروج، فلربما أردَتْك رصاصة قناص متعمّدة، أو رشقة اشتباك طائشة! لكن هاجسك يغلبك، فهناك ستجد قصص الحب تنمو بين صخور الحقد المصمتة... تتحدى رمال الرعب العقيمة... تتسلق، مثل دوالي العنب، أعمدةَ الأمل! تخرج... فلا تجد إلا الوحشة مخيمة فوق الركام... تسير متلطياً بما تبقّى مما كان سوراً أو بيتاً، متجنباً الرصاص كمن يتجنب التبلل في يوم غزير المطر، فلا تقع على مبتغاك... لا رنّة خلخال تتمايل الأرض تحتها وتثير زلزالاً لن يزيد الدمار الواقع دماراً... لا جميلة تستوقفك لتسأل تلعثمك أمام سحر صوتها عن حي الورد... لا ظل حييّة يلوح عبر مشربية ليراقب مرورك المذعور أمام نافذتها وقد زالت النوافذ بتبعثر الجدران... تنصت... فلربما حمل الهواء الثقيل همسة حب، أو أفشى الضياء العجوز قبلة شوق، لكن الأطلال المحيطة بك تعجز عن أن تستذكر غير أزيز رصاص ووقع قذائف وصرخات اغتصاب متمرغة بالرعب والذل، وغير دبيب أقدام تبحث عن الموت هرباً من الموت!!

لربما باتت طرائقك هذه قديمة، أكل الزمان عليها حتى أتخم، وشرب حتى ثمل، فما عاد الحب يأتي من نظرة فابتسامة فسلام... تتململ وأنت تفكر في استخدام طريقة حديثة، حتى إذا اضطررت إلى استحضارها من خيالك لانقطاع عالمك المنهار عن الوسائل الحديثة! لن يلتقط بطلك عطر جميلته لتتحفز حواسه باحثة عن الزهرة التي ضاع منها كل ذاك العطر

ويزداد وجيب قلبه... سيلتقط شبكة بلوتوثها... وسيتحفز محموله الحديث لإرسال رسالة تخلو من ارتجافة الشوق في خطها، ومن دمعة تبلل ورقها، ومن بصمة تعوض بحضورها عن غياب الحبيبة... الجهاز الملتقَط ستسميه الوردة، لكنْ... لا عطر له... لا لون له... فقط أثير فارغ قد يقود بطلك إلى وردة أحلامه التي لن يعرف ما تخبئ بين أردانها، وقد يقوده إلى كمين اختطاف لن يجدي معه توسل ولا فدية!

أسمع أنين تذمرك، وصريف أسنانك غيظاً من عجزك عن أن تخرج مما رغبت في الخروج منه... تتجه عيناك نحوي... أرى فيهما اتهاماً... لوماً... تتهمانني بتشريد انتباهك... بمنعك من أن تكمل ما وطّنت نفسك على إتمامه... تلومانني لظنهما بأنني أسخر من عجزك، وأتشفى بضعفك... تبحثان في صوتي عن مقتل يمكّن يديك من إسكاتي! وتعجزان عن رؤية الألم الذي يعتلج في داخلي وأنا أنظر إليك في مرآة معفّرة بالتراب، راحت تبديك لي أو تبديني لك عبر تحطمها أشلاء لا رابط بينها إلا ملاط حزن عميق وخيوط دماء نازفة...

عناد

ربما أراد أن يبتسم، لكن ابتسامته بدت تكشيرة مبهمة:

- إنها رواية رائعة... ستقرؤها وتدعو لي... انظر... الكاتب الكبير محمود الدعّام نفسه يثني عليها في كلمة الغلاف!

تناولتُ الرواية متردداً وأنا أسأل نفسي "من هو محمود الدعام؟!"، فمدّ يده الثانية في انتظار ثمنها! رغبت في أن أعتذر، فالقراءة خنقها الوقت الضيق وأماتها ظمأً شحّ المال! لكن التكشيرة الابتسامة اتسعت، فشعرت بالخجل من طلاوة الأولى والرعب من وحشية الثانية، وتذكرت عنوان كتاب تمنيت لو أنني قرأته: "كيف تقول لا"

مددت يدي إلى جيبي وأخرجت أوراقاً مبعثرة سارع إلى انتزاعها من يدي دون أن أعدّها أو يعدّها، وولّى دبره هارباً وقد شهق كأنه نجا من الاختناق، دون أن أتمكن من أن ألمح الابتسامة الواسعة على وجهه! لم أعرف المبلغ الذي دفعته ثمناً للرواية، لكنه مبلغ باهظ بالتأكيد، ما دمت سأضطر بعد فقده إلى الاستدانة لإكمال جولتي اليومية في الطوابير التي لا تنتهي، من الفرن إلى مؤسسة الغاز إلى المؤسسة الاستهلاكية إلى سوق الخضار إلى محطات الوقود إلى مواكب التشييع ومواقف العزاء... إلى... إلى... لكنني قررت أن أقرأها انتقاماً لما ضيّعته لأجلها من مال ومن ماء وجه! ولأنني لا أقيم في منزلي مع كل تلك الدوامات إلا في ساعات النوم القصيرة القليلة القلقة، فقد حملتها معي في كل مكان أذهب إليه لأقرأها!

بدت لي منذ سطورها الأولى مولوداً مسخاً حاقداً لئيماً، فما أردته انتقاماً منها ردّته عليّ لتزيد شعوري بالضعف والخيبة أمام جمودها

واستغلاقها منذ صرختها الأولى: "سراويل الأزمنة العارية"! وما زلت حتى هذه اللحظة أتساءل: "من هي العارية، السراويل أم الأزمنة؟!"

بصراحة، حين فكّرت بكتابة هذه القصة خطر لي أن أبدأها بمقطع من تلك الرواية كي أضعكم معي في أجوائها، لكنني أحجمت، أولاً خوفاً من أن تهربوا من قراءتها أو سماعها حين تظنون أن القصة بأكملها على منوال سطورها الأولى، وثانياً إشفاقاً عليكم من الصدمة التي أُصِبْتُ بها، وهكذا أجّلت هذه الخطوة حتى هذه اللحظة ليتسنى لي أن أنبهكم قبل تقديم فِقْرة _ إذا صحت هذه التسمية _ لا على التعيين منها، علماً أن أية فقرة أخرى لن تختلف عما سأقدمه إلا في المفردات المستخدمة، فإليكم هذه الفقرة، متمنياً من المصابين بأمراض الأعصاب والشرايين والقلب والضغط، أن يتجاوزوا هذه السطور عند القراءة، أو أن يغلقوا آذانهم عند الاستماع:

"كنا إذا ولّى الوراء وجال تكتيك القوافي التي هدر كموم البراندي الناتئ من جلابيبها حين نستعيذ كألوان المرحلة بنقيق الأسهم التي خوت عصافير العسس في فيزيائها حتى يرقص الهامدون على الهواء الذي حدّق تحت مساميره النائمة بسرعة الضوء..."

وهكذا الله وكيلكم، "على طرق النفس" طوال مئة صفحة، دون توفّر ما يشير إلى فاصل بين مقطعين أو بين فقرتين، ودون علامة ترقيم واحدة تتكرّم بفاصل جرياً على أسلوب إحدى محطات أفلام الرعب بين مشهدين يقطعان الأنفاس: "Take your breath".

كنت أحاول الخروج من طلاسمها لالتقاط أنفاسي حين سمعت صوت ذاك الرجل، وبصراحة كنت أفكر لحظتها أيضاً في أن أضيف بعض علامات الترقيم إلى الرواية حتى دون أن أفهم معانيها... سأضع العلامات بترتيب معين... سأعد ثلاث كلمات وأضع فاصلة، ثم أربعاً وأضع نقطة، ثم أعد ثلاثاً وأضع إشارة تعجب... لكنني كنت أخشى أن يكون في الرواية معنى مستتر فأسيء بفعلتي إلى عمقه!! المهم... لا أعرف في أي الطوابير كنت واقفاً، فقد غدت كلها متشابهة في طولها المتلوي كالأفاعي والوجوه

الكالحة للواقفين فيها، وقد راحوا يتصببون عرقاً وقهراً! كان ذاك الرجل يحرك يده قرب رأسه وكأنه يركّب مصباحاً كهربائياً في أذنه:

- إنها السقافة يا عيني...

مخاطباً الجميع دون أن يخاطب أحداً، وناظراً نحوي دون أن يشير إليّ! وراودني السؤال: "هل لكلمة السقافة هذه معنى مرتبط بحالتي أم أنه عنى الثقافة؟! وإذا كان هذا ما يعنيه فلماذا قلب الثاء سيناً؟! أهو من متكلّمي لهجة أخرى غير لهجتي؟! لوجب عليه عندها أن يقلب القاف أيضاً... السآفة! هل تعمد قلب الثاء ليوحي للمستمع بقلب القاف إلى حرف يجعل للكلمة معنى آخر؟ الخاء مثلاً؟!!"

وتحرك الغضب النائم في صدري فآلمني... ظننت أنه سيستيقظ فسارعت، في الوقت المناسب، إلى هدهدته ودفعه إلى البقاء نائماً...

"هذا الرجل لا يعنيني بعبارته بالتأكيد، وقد صادف أن قالها وهو يحدجني بتلك النظرة اللئيمة! ولا يمكن أن تكون القراءة والثقافة محطاً للسخرية! هذا مستحيل!"

وهززت رأسي مبتسماً لذكاء النتيجة التي توصلتُ إليها...

"إنها فقط الأوهام التي تثيرها فيّ هذه الرواية... ثم لا يمكنني أن أثير معه شجاراً الآن، فمن المؤكد عندها أنني سأخسر دوري وسأعود إلى نهاية الصف الطويل الذي لم أعد أرى نهايته! وقد... _ وتقصّفت ركبتاي للفكرة المرعبة _ قد يكون هذا الرجل من أولئك الـ... وإذا كان منهم عندها سأشتاق كثيراً للذباب الأزرق الذي لن يعرف لي طريقاً، هذا إذا استطعت تذكّره أو تذكّر لونه!!"

ففضّلت أن أدس رأسي في رمال الرواية كالنعامة...

كنت في صف طويل آخر، أتساءل عن السر في كل هذه الطلاسم المخطوطة على أوراق لو عرفَتْ أمُّها الشجرة بما ستضمه في بطونها لفضّلت الاحتراق! أهي الحداثة؟! أهي ما بعد الحداثة؟! أهي تفجير للّغة أم للأدمغة؟! وتذكرت... لا بد أنها الدادية...

اختر أي مقال من جريدة يتناسب طوله مع طول القصيدة التي تنوي كتابتها، وقصّ كلماته كلمة كلمة، واخلطها، ثم تناولها بعشوائية واحدة واحدة ورتّبها بجانب بعضها حتى تكوّن أشطراً شعرية، وحين تنتهي من لعبتك المجنونة ستكون قد أتممت كتابة قصيدة دادية!!

أتكون هذه الرواية رواية دادية؟! ألا ينبغي أن تكون الكلمات المأخوذة من المقال نفسه متناسقة المعاني مرتبطة بموضوع واحد؟! فلماذا تأتي كلمات هذه الرواية من حقول يبدو أن لا رابط بينها؟! الطبيعة والعلوم والسياسة والاقتصاد والثمالة؟! أيكون المؤلف قد قص االجريدة بأكملها على اختلاف مقالاتها وأجرى عملية الخلط؟! وفكرتُ في لحظة استياء، أن أمسك قلماً لأضع على كل صفحة من صفحاتها إشارة X كبيرة يمتد خطّاها المتقاطعان من الزاوية إلى الزاوية... لكن... ألن يُعتبر هذا بعد مئة عام خطأ شنيعاً في حق الكاتب الذي قد يُكتشَف في ذاك الزمن أنه كان يسبق عصره؟! وتناهت إلى سمعي أصوات حديث بدت أقرب إلى الصراخ أو الشجار، لكنها كانت مجرد حديث توقعتُ أن متبادلَيه يرغبان في إسماعه للآخرين لإبعاد الشبهة عنهما إذا ما تهامسا...

- وفّقهم اللّه... ها قد رفعوا الأسعار ليمنعوا التهريب، وليعيش المواطن في بحبوحة يُحسَد عليها!

- واللّه معك حق... ولا تنس أنهم أيضاً قطعوا عنا السلع الضرورية لمنع الاحتكار...

بدت العبارات خارجة من قلب الرواية التي كنت أحملها... رغبت في التدخل للاستفسار عن كل هذه التناقض ما دام بطلا التناقض حقيقيين وماثلين أمامي، بعكس كاتب تلك الرواية الذي بتُّ أعتقد أنه ليس موجوداً أصلاً ليكتب كل تلك الفوضى، أو لم يعد موجوداً بعد أن نالت منه كل تلك الفوضى ودفعته للانتحار... وفي الوقت المناسب – وما أكثر أوقاتي المناسبة التي أبقتني حياً حتى اليوم! _ امتنعت عن التدخل، فلعل هذين الرجلين يتعمدان دفعي إلى منزلق أخوض فيه نقاشاً عقيماً أو أعبّر فيه عن رأي قد يودي بي إلى التهلكة!

وفي صف طويل آخر تحت الشمس الحارقة ذاتها، كنت أناطح فكرة تمزيق كل هذا الالتباس المتجسد على الصفحات حين كسّر قروني التباسٌ آخر في أحاديث الناس...

- وكيف ستمضي الشهر بعد أن صرفت كل ما تملك خلال أيامه الثلاثة الأولى...

- الله سيدبرها كما دبرها طوال الأعوام الماضية...

- يا حبيبي اخرج من بركة الدم التي تغمرك بها محطات الأخبار وشاهد - لم يقل "اسمع" – "ستار" الغناء العربي...

- أنت على حق، فمعه لن ترى اللون الأحمر إلا في ما تبقى من قطع الثياب المبعثرة على أجساد النساء...

- لا تسئ الظن بهن، فلعلهن مضطرات إلى اختصار ثيابهن كما نختصر أيامنا وشهورنا...

ومرة أخرى أنقذني الوقت المناسب...

مرات ومرات خرجت من التباس الرواية والرغبة في حرقها أو تمزيقها إلى التباس الأحاديث التي باتت أشبه بتلك الرواية، مطأطئ الابتسامة أمام مخالب موظف متجهم... خائباً بين أنياب صرّاف معطل... مستلقياً بين كثيرين لنيل قسط من راحة على رصيف بات سريراً لانتظارنا... حارساً لاسطوانة غاز تكاد تتفجر لعمق الخواء الذي تعانيه أحشاؤها... لينقذني الوقت المناسب في كل مرة ويعيدني إلى جادة البقاء الذي لا يشبه العيش أو الحياة...

وكي لا أبدو متشائماً، فإن هنالك باباً واحداً لا أضطر إلى الوقوف ساعات في صف طويل للوصول إلى عتبته وللحصول على ما يختبئ وراءه... إنه باب البيت الذي أسكنه! ولأوضح، على غير عادة القصة التي تترك للمتلقي حل رموزها، وبالتحديد كي لا تضطروا إلى حل رموزٍ قد تأخذ أفكاركم إلى ما لا أقصده، فإن هذا الاستثناء سببه فقط عجزي عن الحصول على البيت المختبئ خلف عتبة الباب حتى مع صيامي وعريي عمراً كاملاً!

على كل حال، مع "طقّة" المفتاح في قفل ذاك الباب استقبلتني زوجتي بموال خلته استمراراً لما كان ينشده الواقفون من حولي، لا معي، طوال النهار! كانت شظايا العصبية تنقض عليّ، لكنّ الوقت المناسب لجم رغبتي في الفرار منها، فالقنابل أهون وقعاً من الغارات والصواريخ:

- هل رأيت؟! – وأنا بالتأكيد لم أكن قد رأيت، لكنني هززت رأسي كأنني رأيت! – المراقبون، أولاد الحرام، منعوا ابننا من الغش في الامتحان... سيضيع تعب عام كامل!

وتضاربت الكلمات في رأسي... غش وتعب... امتحان ومنعوا... ولمحتُ العبارةَ مثل خيط عنكبوت دبق يتدلى من الرواية التي لم أكن قد أتممتها! فكرت في ما يمكن أن أقوله رداً عليها، لكن زوجتي كانت، وفي الوقت المناسب، قد انسحبت وقد فاضت عيناها بالدموع لتنهدّ نائمة بعد يوم طويل لا أحسبه إلا توءماً ليومي!

حتى التلفاز، رصاصة الترفيه في أصداغ مدمنيه، وافاني على عادته اليومية، كمستنقع آسن للهمّ العظيم والبلاء المقيم! ففي المسلسل لا يجد العاشقان اللدودان طريقة للتعبير عن حبهما سوى الخيانة، وفي الأخبار تشكر الديار المهدَّمة الله لنهايتها السعيدة تحت القذائف متخمة بالأشلاء والدماء، واللاجئون في غاية السعادة لانهيال أخبار المساعدات المسروقة فوق رؤوسهم، واللحى الهشة تصد السكاكين الرهيفة عن الأعناق التي لا تحمل رؤوساً، وفي الإعلان: "ببضعة ملايين لا تملكها تتملّك شاليهاً فاسترجل ودبّرها!"، وفي المسابقات: "أرسل SMS فقط دون أن تجيب على السؤال، ونحن نعدك بعدم الفوز!"... وفي الوقت المناسب ضغط يأسي على زر جهاز التحكم للجم عواء ذاك الذئب الرقيق، لكنني أصررت فيما تبقّى من الليل العاري من هدأته على إتمام ما تبقى من الرواية، بكل العناد الذي أبقاني واقفاً على قدميّ طوال ذاك النهار، لأخرج منها كما دخلت إليها، بحفنة من خيبة في فمي، ملفوفاً بكفن من فوضى والتباس، ولأرتطم بقعر النوم قبل أن أجد متسعاً من الوقت للتفكير في أي من متاهاتها التي احتوتني مع متاهاتي

طوال النهار! نمت... وكالعادة منذ أعوام طويلة، دون أن أجد حتى في نومي متسعاً للأحلام!

وفي الصباح الباكر استيقظت كالعادة لا على زقزقات العصافير كما يستيقظ أبطال الحكايات، بل على صراخها الفزع من وقع الانفجارات والمدافع ولعلعة الرصاص، لأنهض مستعجلاً الوصول إلى دور جديد أقضي في غماره يومي، دون أن أنسى قبل خروجي تناول تلك الرواية لأعيد قراءتها بمزيد من العناد فيما يشبه طقساً جديداً من طقوس الفوضى اليومية!

الدفتر

كنت آوي إليه... إلى صفحاته... أكتب فيها شيئاً جديداً، أو أقرأ ما كتبت من قبل... أنام وأصحو بين سطوره... تقودني كلماته وتهديني عند كل مفترق طرق... أطرب لحروفه... أرقص مع إيقاعاتها... أنتشي مع معانيها... أشعر بالأمان بين دفتيه... بالسعادة لصحبته... بالفخر للكنوز التي كدستها فيه طوال سنوات عمري... بدءاً من حكايات جدتي مروراً بزبدة كل ما قرأت وكل ما عشت، عبر المكان والزمان نحو اللامكان واللازمان!

إنه دفتري العجيب... اتسع على الرغم من صغره لخلاصة الكثير من أفكاري وتجاربي وقراءاتي، بل اتسع لكل تفاصيلها! كل يوم أخط فيه صفحات، فكأنني أحفرها في صخر لا أخشى زوالها أو ضياعها، فأجد فيه متسعاً للمزيد! كل يوم أعود لأقرأ بعضاً مما كتبت، فلا يستعصي عليّ أن أجده في لحظات! يكفي أن أفتحه لأجد ما أريد ماثلاً أمامي يعيد إليّ ذكرى تجربة عشتها أو صفحة قرأتها فعاشت في أعماقي حية نابضة في انتظار أن تمد يد عونها لي أمام تجربة جديدة... وكل يوم يفرد أمام عينيّ صفحاته البيض دعوة لخط المزيد... دعوة لخوض عباب الحياة بكل أبعادها، بين البشر وبين صفحات الكتب وعبر الخيال الذي لا ينضب، لأعود فأخط فيه المزيد، فكأنه البحر العذب لا يزيد إذا ما دلقت فيه كأساً أو دلواً مما جنيت، ولا ينقص إذا ما اغترفت منه ما يسند خطوتي ويجلو بصيرتي! إلى أن كان يوم...

لم يعرف أحد السبب في اندلاعها! عزاها البعض إلى ناقة عطشى طلبت الورد من ماء محرّم عليها فبقر سهم ضرعها، وعزاها البعض الآخر إلى حصان وفرس متسابقين، وكان لا بد لأحدهما من الفوز وللآخر من الخسران، وآخرون عزوها إلى قرد نال منه سيف في سوق! ومع تعدد الأقاويل على عدد الذين يرددونها ظلت الحقيقة الوحيدة أن الحرب قد اندلعت!

كان صباحاً واجماً مفعماً برائحة دماء تحملها رياح من مسافات بعيدة، ضاجاً بانفجارات تقترب وتبتعد وبرصاصات يسمع أزيزها محاذياً للآذان متشهياً للصدور والعيون... كنت أراقبه من نافذتي وأنا أستعد لدوامة موتي اليومي، حين هبت عاصفة من قصاصات الورق الممزق، مختلطةً مع رمل جاف لا يمت إلى التراب الذي أعرفه، ومبعثرةً مثل ذراته، لتغيب كأنها لم تكن، تاركةً في الجو سديماً من غموض وتساؤلات! خمّنت أنها نتف من أوراق دفاتر تشبه دفتري أخفاها الكثيرون عن أعين الكثيرين، ثم جاءتها العاصفة فمزقتها... خشيت على دفتري... أخفيته... شعرت بالاطمئنان عليه، فلم يكن صعباً إخفاؤه! يكفي أن أضعه بين كتبي ليتماهى معها ويغيب حتى عن ناظريّ أنا إذا لم أكن أبحث عنه، أما إذا قصدت البحث عنه فسيتحول كل كتاب يحيط به إلى دفتري الذي أريد، لأمد يدي وأتناول أياً منها وأجد دفتري المطلوب في يدي! يكفي أن ألقيه فوق طاولة أو أدسه في حقيبة أو أخفيه تحت وسادة لينصهر مع ذرات المكان ويصير جزءاً منه، ثم لأجده حيثما شئت أن أجده دون ضرورة بحث أو كثير عناء! لكن... ما لبث شعوري بالاطمئنان أن تداعى وتهاوى...

خرجت قاصداً عملي كما في كل يوم، وسط ضجيج الحرب وعواصف القصاصات الممزقة كما في كل يوم... استوقفني رجال يرتدون التجهم ويحملون السلاح عند حاجز شبيه بالكثير مما سواه... تهيأت لإبراز بطاقتي الشخصية لمن كانت فوهة سلاحه أقرب إليّ... "سيمد يده... يتناول البطاقة... ينظر إليها... لن تتغير ملامحه... سيقلبها... يتأمل وجهها الآخر... ثم سيرفع عينيه نحوي ليتأملني... سيعرفني كما في كل يوم من ركام الحرب الرابض

فوق كتفيّ... من الحزن الذي يحتل وجهي كما في كل يوم... من الكلمات المتدلية عند شفتيّ مشنوقة عاجزة عن الانطلاق كما في كل يوم... أخمّن أنه سيراني شريكه في المأساة... لن يقول شيئاً... سيعيد إليّ البطاقة لأنطلق نحو حاجز جديد!!" هذا ما توقعت أن يحدث، لكنه لم يحدث...

مددت له البطاقة الشخصية فحدجني بنظرة اخترقت عظامي وأصابتني بالرعشة! أي خطأ اقترفتُ؟! دفع البطاقة فسقطَتْ من يدي...

- ناولني الدفتر...

أردت أن أسأله: " أي دفتر؟!" لكن معدن بندقيته صوّب شعاعاً منعكساً من الشمس إلى عينيّ ليجمدني! شعرت بالشلل للحظات كنت بعدها مضطراً للتحرك حتى لو كنت حجراً، فالبندقية لم تكتفِ باللمعان، بل صوّبت الظلام العميق لسبطانتها نحوي لتصيب روحي في عمقها... هناك في ذاك البئر حيث كنت أخفي مخاوفي حتى عن نفسي... في عمق سبطانة الروح حيث ترقد رصاصة متأهبة للانفجار! مددت يدي إلى أحد جيوبي التي كانت تزداد في كل يوم اتساعاً مع ازدياد فراغها، فخرجَتْ فارغة إلا من سوادها... تراجعت السبطانة في حركة دائرية مفاجئة معطية مكانها لعقب البندقية الذي لطمني على وجهي بقسوة مع الطلب ذاته، بل مع الأمر ذاته أشد حزماً وبطشاً:

- ناولني الدفتر...

ولأنني لا أملك إلا ذاك الدفتر، فقد مددت يدي ذاتها إلى جيبي الخاوي ذاته، لأجد الدفتر كما اعتدت أن أجده في كل مرة أبحث فيها عنه... مرّرته بمحاذاة السبطانة التي عادت لتأخذ مكاناً أقرب إلى صدري... تناولَه... قلب صفحاته، وقلب شفتيه، ثم أداره مفتوحاً نحوي:

- ما هذه الطلاسم؟!

لمحت في اللحظات الخاطفة المرافقة لسؤاله كلماتي وخطي... هل يعقل أنه لم يستطع قراءتها؟! استرد الدفتر نحوه، وراح يمزقه بهدوء وبطء لأشعر

أن قلبي يتمزق بين يديه ثم ينتثر مع القصاصات المتطايرة في الهواء مختلطة بالقصاصات الكثيرة التي صنعت عاصفة محشوة بالطلاسم... ثم أشارت السبطانة لي في عكس اتجاه مسيري:

- لا تعد قبل أن تأتي بالدفتر...

نسيت التقاط بطاقتي، ودفنت فكرة إخباره بضرورة ذهابي إلى عملي، وعدت إلى منزلي، لأجد دفتري حيث بحثت عنه... كدت أطير فرحاً... فهو لم يتمزق كما شبّهت لي عيناي، ولم تذهب حياتي المسطّرة فيه سدى! لكن دفتري هذا، كلما حاولت عبور ذاك الحاجز انضم إلى عاصفة القصاصات لأعود أدراجي مكللاً بالخيبة والحيرة، دون أن أنتبه لفرط إطراقي إلى تلك "الأكشاك"... أكشاك راحت تتكاثر على جوانب الطريق كأنها الدمن في توسعها السرطاني، تضيّق الرصيف الضيق أصلاً، إلى أن بدأت في مسيري الذاهل أتعثر بها... عندها انتبهت... من دون لافتة أو إعلان واضح بدا أنها "أكشاك لبيع الدفاتر"! توقفت أمام أحد الأكشاك ليبادرني صاحبه وكأنه ظل أياماً يراقبني:

- لا بد أنك تعاني مشكلة كبيرة...

وأومأ برأسه نحو الحاجز الذي تركته للتو، ودون أن ينتظر مني أن أقول شيئاً أضاف:

- مضت أيام دون أن تذهب إلى عملك... بالتأكيد سوف يطردونك...

لامس بكلماته وجعاً كدت أنساه وأنا غارق في لجّة حيرتي، ثم استطرد:

- ولا حل أمامك إلا أن تشتري دفتراً...

وأشار إلى كومة الدفاتر أمامه! كانت الدفاتر كلها من اللون ذاته والحجم ذاته! تناولت دفتراً... فتحته... توقعت أن تكون صفحاته بيضاً لأقوم أنا بالكتابة عليها كما اعتدت مع دفتري، لكنها كانت مكسوة بطلاسم غريبة لم أفهم منها شيئاً! نظرت إلى البائع متسائلاً... ابتسم نصف ابتسامة:

- هذا هو الدفتر الذي يطلبونه...

وأومأ ثانية نحو الحاجز...

مسيّراً برغبتي في الخلاص، دسست الدفتر في جيبي وسألت البائع عن ثمنه، فانفجر ضاحكاً وراح يدفعني بيديه للانصراف قائلاً:

- ثمنه أن تشتريه...

في اليوم التالي، ومن جديد، حظيَتْ عاصفة القصاصات عند الحاجز بمزق جديدة من دفتري الجديد، ودُفعْتُ بكثير من العصبية والتقزز ومع كثير من التهديد للعودة إلى البيت، فعدت إلى ذاك البائع ألومه وأحاول أن ألقي عليه بعض ما أثقل كاهلي:

- ها قد مزقوا دفترك أيضاً... فأي دفتر بعتني؟!

كشّر عن أنيابه حتى شعرت أنها انغرست في قلبي، ثم حول تكشيرته إلى ابتسامة شفقة واستخفاف:

- لقد مزقوا دفترك أنت لا دفتري! ألم تمزق دفترك القديم؟!

وهززت رأسي نافياً...

- مزق دفترك القديم بنفسك ولن يمزقوا دفترك الجديد ثانية...

ومع شعوري بأن ما قاله ما كان يمكن أن يكون إلا سخرية، بحثت في جيوبي عن الدفتر لأجد دفتري القديم، وعدت إلى البيت باحثاً عن الدفتر الجديد فما وجدت في كل ركن بحثت فيه إلا دفتري القديم! تناهبتني المشاعر والأفكار... فهل تحول كنزي إلى لعنة؟! ألن أستطيع الذهاب إلى عملي، أو حتى مغادرة منزلي، إلا إذا مزقته؟! ألن أستطيع مقابلة أصدقائي؟! ألن أستطيع زيارة المكتبة؟! ألن أستطيع كسب رزقي؟! هل سأموت جوعاً؟! وإذا مزقته، ألن يعود للظهور غداً؟! ووجدتني حائراً مع سؤالي الأخير: هل كنت أتمنى أن يعود للظهور أم أن يختفي لتختفي معه كل مشاكلي وأعود إلى سابق عهدي في الحياة؟! وهنا وخزتني الفكرة، بل طعنتني حتى الصراخ: إذا اختفى فهل سأتمكن من العودة إلى سابق عهدي في الحياة؟!

وفي الصباح التالي لليلة متلاطمة الأرق مزّقتُ الدفتر – دفتري - قبل خروجي، فهربَتْ كل مزقه من يديّ عبر النافذة لتغيّبها الجدران والدموع والريح العاتية عن عينيّ... وعند الحاجز أبرزت دفتري الجديد ليشير الجندي بالبندقية سامحاً لي بلا مبالاة قاتلة بالمرور، ولألمح من بعيد ابتسامة ذاك البائع ونظرته الشامتة...

القسيمة

يرفع يده فتضيع في غابة أيدٍ كثيرة ممتدة للـ... يجهد صوته محاولاً توضيح وضعه، وما آلت إليه حاله، فيتحول إلى جزء من صخب الأصوات المحيطة الذي ما عاد يحمل معنى سوى ضياع المعنى... يلمح المتهافتين مثله على قسائم المعونة... يرى كل واحد منهم وقد سمع اسمه يندفع لتناول قسيمته، بل لانتزاعها والهرب بعيداً بها... الهرب ربما من أن ينتزعها أحد منه... من الضياع... من الحسد... ويغيب في زحام أحلام مفعمة بقسمته ونصيبه من أرغفة الخبز وعلب السردين والزيت النباتي والدفاتر والأقلام والـ... والـ...

هل سيفعل فعلهم إذا ما واتاه الصبر لانتظار دوره المعجون بالفوضى، إذا لم تغرقه دوامة الخجل في هرب جديد؟! يتذكر نفسه قبل أن يشيخ رعباً وهماً وذلاً... يتذكر نفسه قبل أعوام قليلة... شاباً عادياً مملوءاً بالطموح... تكسره صخور العثرات في دروب حياته... فيكتفي بأن يظل كسيراً في وادي معطوبي الأحلام، يكدّ لينال لقمته بعرق جبينه... لم يستجدِ يوماً رغيفاً... وها هو الآن...

يتذكر أنه أحب وتزوج وأنجب حالماً بالسعادة، على الرغم من الأعباء التي حملها بكل هذا... لكنه لم يتصور أن تدفعه زوجته وأولاده إلى هذا الانهيار... يتذكر أنه بنى بيتاً... بيتاً صغيراً... روى كل ذرة رمل فيه بقطرة من عرقه... جبل إسمنته بأحلامه... بلهفته لرؤيته يعلو أمامه ليتحول إلى جدران وسقف يظله... ثم رآه، وقد حوّل الحزنُ والرعب صدره إلى حطام، كومةَ أحلام وعرق مهدور... وها هو الآن... ها هو الآن... ها هو الآن...

تتناهى إلى سمع أوديسيوس أغاني الحوريات... أصوات ممتزجة... متناسقة... متظافرة... منسجمة... كأنها صوت واحد... رقيقة إلى حد الرهافة... جليلة إلى حد الوطأة... تجذبه مثل حبل نحو إغوائها... نحو الاستسلام اللذيذ للذوبان في أحشائها... في ترانيمها... في الانعتاق من زحام الأجساد المتدافعة نحو القسيمة... من تلويح الأيدي بمناديل الذل والفاقة طلباً لوهم اللقاء في لحظات الوداع... يهز رأسه... يطرد ذكرياته التي كادت تجره للعودة إلى أبنائه المتعاوين جوعاً خالي الوفاض، وإلى عينَي زوجته المترقبة مكسور النظرات...

يصرخ أوديسيوس برجاله آمراً:

احشوا آذانكم بالشمع... أقصوا الإغواء الصاخب عنها... صدّوه عند أبوابها... واربطوني إلى الصاري...

ويشرق بدمعه:

اربطوني إلى الصاري... بكل ما أوتيتم من حبال الكبت والنسيان... شدوني إلى الصاري...

وفي زنزانة الحبال الملتفة على جسده يسمع المزيد من تلك الألحان ترددها أصوات ساحرة... تخلق أرانب اللهفة والشوق والتمرد من قبعات الصدور الخاوية... تنكمش يده الممدودة... تتقاصر بين الأيادي المندفعة نحو وهم الشبع، ووهم الفرح... يصطدم مرفقه المنسحب بالأكتاف المتزاحمة... يحس بوطأة الأجساد المحيطة تضغطه وتبتلعه كغريق في لجّة... لا مفر له من رفع يده لملامسة الهواء...

تعيده الصدمة للالتصاق بصاري السفينة الموشكة على الغرق... يتمنى أن تنتحر الحوريات كما تشيع الأساطير، كي يرتاح ويتفرغ للعاصفة المعربدة... لمواجهتها... أو للانحناء أمام جبروتها... علّه يعود إلى زوجته وأولاده بما يقيتهم أياماً ليعاود الانخراط في معركة جديدة... في لجة جديدة... تتطاول يده من جديد... تنمو مثل صبار عنيد في رمال القحط... يهمّ بتحريك لسانه:

شدوا وثاقي إلى الصاري...

لكنه يسمع اسمه... يتراخى الحبل أمام اندفاعه... يتحول إلى مشنقة يلقيها إلى الحوريات كي تلفها على أعناقها، في الوقت الذي ذابت فيه آذان البحارة متأثرة بحرارة الشمع، لا ليغدوا قادرين على سماع أغنيات الحوريات المشنوقة، بل لتتدحرج رؤوسهم خاوية مما كان يتخبط فيها... وقد أخذت السفينة بكثير من الصخب تغرق رويداً رويداً...

عيون المها

آب... يفرد لظى غيومه... يظلّل بجمره حزننا... يعرّي بما تصبّب من صديد أرواحنا كذبَ ابتساماتنا... والغصة المخنوقة فينا تفضح الصراخ في همساتنا... في حضرة كومة من كتب... بل كومة من قلوب محتضرة فوق الطاولة، وبين جدران منزل أراها بأم عين يقيني تتداعى! كنت أنظر إليكِ... للمرة الأولى في لقاءاتنا تتعجلين انصرافي... تتعمدين التغيب عني في المطبخ بحجة تحضير القهوة... في الموزع الذي يضم مكتبتك بحجة البحث عن مزيد من الكتب وإحضارها للانضمام إلى ما تكوّم منها منتظراً تشييعه... إلقاء نظرتك الأخيرة... لهفتك الأخيرة عليها!!

ما زلت أذكر لقاءنا الأول... كأنه حدث بالأمس... أمام كثير من الكتب، مثل لقائنا هذا الذي قد يكون الأخير! في معرض للكتب... كنا قد أردنا شراء النسخة الوحيدة المتبقية من الكتاب ذاته... تذكرينه... أنا متأكدة... "شكاوى المصري الفصيح"... جهزت نفسي للمشاجرة... حشوت صدري ببارود الصراخ، وحنجرتي بقذائف الكلمات التي لن تستطيعي الرد عليها دفاعاً عن ما كنت أراه حقي في هذا الكتاب، استعداداً لتفجير كل هذا في وجهك، لكنك كنت أرق من أن تتشاجري، وأجمل من أن تغضبي حين اقترحتِ، بكل بساطة:

- ما رأيكِ أن تشتري أنت الكتاب وتعيريني إياه؟!

ثم مددت يدك لمصافحتي مع ابتسامة أسرتني، لأسمع اسمك للمرة الأولى:

- مها...

لن أذكّرك بذاك اللقاء لأنه سيلقيك فريسة لتلك "الشكاوى" التي قرأناها معاً وناقشنا الكثير من تفاصيلها معاً! كنت أؤكد أن كثيراً مما ورد في تلك الرواية يتجاوز حدود المبالغة، فهل يبيع البشر أولادهم وأنفسهم؟! بينما كنت ترين الأمر واقعياً جداً، ومتكرراً جداً، دون أن أتصور أنني سأراك يوماً تتحولين إلى شخصية أكثر مبالغة من شخصيات تلك الرواية وأنت توزعين فلذات كبدك على الأصدقاء، كي تتمكني من الرحيل متخففة منهم!! كنا طوال سنوات صداقتنا فأرتَي كتب، لكنك كنت ملهمتي ومرشدتي إلى أروع ما قرأت وأغربه، لتبهريني بعينَي زرقاء اليمامة اللتين تملكين، وبذائقة رقيقة حساسة كسهل ثلجي ناصع، لهذا لا يمكنني أن أنسى حزننا ودهشتنا معاً أمام "ذاكرة الجسد"... صدمتنا معاً "بامتداح الخالة" و"لوليتا"... توجسنا معاً من كل سطر تال في "أولاد حارتنا"... إصرارنا الطفولي معاً على قراءة المؤلفات الكاملة لكازانتزاكي وماركيز وكونديرا، والتقاط كل ما يصدر حديثاً لمينا والأعرج والكوني ومعلوف وكويلو وغيرهم وغيرهم... كنا نعيش معاً حيوات تلك الشخصيات... نبكي معها... نضحك معها... نغضب... نحزن... نتلهف... نعشق... نكره معها!

أذكر أننا تناقشنا كثيراً في وضعنا هذا بكثير من الجدية أحياناً وبكثير من السخرية أحياناً أخرى! أليس هذا شذوذاً؟! ابتعادنا عن المشاغل اليومية والاعتيادية للنساء في مثل عمرنا... طبخة اليوم... أدوات التجميل... الفساتين الدارجة.... نميمة الصباح!! أليس هذا هروباً؟! من ظلم يلطمنا بعارضيه يومياً دون مسحة الجمال التي يضفيها عليه الأدب... من حزن ينبعث غزيراً من كل ما حولنا دون أن نتمكن من ذرف أيّ من دموعنا التي كنا نذرفها فوق صفحات الكتب... من أحلام ذبلت مع ذبول أعمارنا فرُحنا نعوّضها لدى أبطال روايات لا ييئسون مثلنا!!

وها أنت الآن تضعين كل ما عايشناه معاً طوال سنوات في كومة واحدة، على طاولة أمامي لم تعِ فداحة حِملها لتتكسر تحته أو تحترق... تهدينني ما لم يكن يوماً لك وحدك، وما لن يكون يوماً لي وحدي! ففي غدٍ

سترحلين لتتركيني وحدي... ستقصدين بلاد اللجوء هرباً من بلاد تأكل أولادها... ستخاطرين بما بتنا على يقين من أنه وهم الحياة، بحثاً عما لن يكون إلا وهمَ الحياة! ستسلمين روحك المتوقدة إلى نخّاسي الحدود ومهربي بضاعة البشر التي باتت الأكثر رواجاً والأبخس ثمناً مما سواها من الممنوعات! ستلطمين موج البحر بزورق متهالك وسترة واهية للنجاة... ستخترقين كرصاصة قلب الغابة لتبتسمي لمن سيصادفك من سيد عملس وأرقط زهلول ووحوش لم ترقَ قدرات الشاعر إلى تخيلها، وقد باتوا أهليك دون بني أمك الأشد وحشية وافتراساً... ستطوين أفاعي الطرقات المتلوية بما أُفعِمَتْ به من سمّ ناقع، وتتحدَّين هراوات الرفض والقنابل المسيلة للدموع وأنت ترينها لا ترقى إلى القنابل السافكة للدماء التي خرجتِ من بلادك هرباً منها!! وإلى أن تصلي ستواجهين وستواجهين... ما لا يمكنني أن أتخيله، أو ما لا أرغب في أن أتخيله... لكنك ستظلين مصرة على الرحيل!!

وها أنا أتململ محاولة أن ألبي رغبتك العارمة في انصرافي كي تتالي فسحتك الكافية من الدموع، لآخذ معي بعضاً من هذه الكتب التي لن تقبل بأقل من أن تحترق وتحرقني معها إذا ما تجاوزتُ عتبة بابك! لكنني لن أخذلك... سأغادر... سأتركك قبل انهيار سدود دموعك في عيون المها... عيون المها اللواتي، في هذه المرة، وللمرة الأولى مذ عرفتها، قد جلبن الأسى...

سولاريس

لم يكن حنيناً قدر ما كان هروباً... مضت سنوات طويلة مذ غادرت كييف... تذكرتها كثيراً... شوارعها... أبنيتها... فتياتها... مغامرات الطلاب وقصص الحب والفراق... لكنني لم أتوقع أن أعود إليها منكسراً هارباً نازحاً! وها أنا هنا... أملك من المال ومن ما تبقى من اللغة ما يسمح لي بالعيش شهوراً بعيداً عن بلاد تركتها نهباً للدمار والأيادي العابثة! لم أحاول الاتصال بأحد ممن كنت أعرفهم من العرب أو من الأوكرانيين... لم أرغب في أن يكتشفوا تحوّل عينيّ اللتين عرفوهما كنجمتين، إلى حفرتين أغلقتا ظلامهما على صور القذائف والقنابل وأنهار الدماء! لم أرغب في أن يشهدوا تقوّسي تحت وابل من الآلام والمخاوف! لم أرغب في أن يبادروني بما بات يثير رعبي... أن يسألوني عن بلادي...

لم يكن تسكعي اليومي حنيناً قدر ما كان هروباً... أخرج من الشقة التي استأجرتها في شارع بريفانسكايا، متعمداً أن أسلك أطول الطرق في اتجاه هدفي، فأتجه نحو ساحة كوسمونوفتوف، فشارع تشوكولوفسكي بولفار، متحاشياً طوال الطريق الاصطدام بسمرة تشبه سمرتي، أو بلكنة تشبه لكنتي، أو بحزن يشبه حزني! محاولاً أن أجد ما يشدني في المحال البراقة أو في الزحام الهادر على أوتوستراد النصر وتاراس شيفتشينكو، متلفتاً بين فينة وأخرى تحسبّاً: ألا يمكن أن يطالني هنا انفجار قنبلة أو سقوط قذيفة أو رصاصة قناص غادرة؟! أمرّ بالجامعة الحمراء، فأعتصر ذكريات سنوات قضيتها في رحابها: فهل يمكن أن تعوضني لذة الماضي عن كل خيبات الحاضر؟!

أقصد شارع الخرشاتك متعمداً أن ألقي نظري نحو تمثال لينين، لأحاول ردم الإجابة العميقة في صدري عن سر التغير الذي طرأ على هذا التمثال في عينيّ، على الرغم من ثبات وقفته هناك! فقد كنت أرى في يده المرفوعة قرب صدره محاولة للإقناع بالنقاش والعقل الذي تحمله، فكيف تحولت إلى يد كسيرة مستجدية؟! أتركه خجلاً من نظرته الشاخصة نحو أفق بعيد ما عاد يمكنني أن أحلم بوجوده، لأجوب زحام سوق البيسارابكا، ثم أتجه نحو حديقة النوافير الألف، لأفاجأ، كأنني لم أفاجأ بالأمس، بأنها أزيلت كي تفسح مكاناً لبناء مركز تجاري ضخم! ما الذي سيحل محل الحدائق المحروقة في بلادي؟! وما الذي سيبنى على ركام الأبنية المهدمة؟! أعود أدراج الخيبة قبل أن أصل إلى ساحة الخرشاتك التي هُدم اسمها أيضاً ليفسح المجال لاسم جديد تساءلت كثيراً عن السر وراءه "ساحة أوروبا"، متوقفاً أمام مبنى البريد المركزي... النقطة التي يعود إليها كل تائه في كييف مستعيناً بترتيب أرقام المنازل والشوارع التي تتخذه مبدأً، كي يستأنف مسيره في اتجاه لا ضياع فيه، ضاغطاً بمرارة على قبضتيّ مكبّلاً حنجرتي كي أمنعها من الصراخ: إلى أي نقطة للانطلاق يمكننا أن نعود بعدما اختلطت الأرقام والأسماء والأنقاض في خضم ركام لا قعر له؟!

لم يكن حنيناً عودتي إلى ذاك المقهى أو المطعم، بقدر ما كان هروباً من صخب تلك الأسئلة التي كانت تطلق نيرانها على صدغيّ! لا أعرف ما جذبني للدخول إلى هذا المقهى دون غيره مما ينتشر على طريق مسيري الطويل، على الرغم من أنه يلوذ بعيداً عن تاراس شيفتشينكو في شارع اليونتوفيتشا قرب مصرف ستاراكييفيسكي! لكنني أذكر أن اسمه مع سهم يشير نحوه لفت انتباهي منذ اليوم الأول... سولاريس... ربما كنت أبحث عن كوكب خيالي كي أهرب إليه، فوجدت سولاريس ماثلاً أمامي، وربما كنت أبحث عمن يشاركني هذه الآلام بصمت... بكبرياء... ككائن كبير بحجم كوكب، على الرغم من أن رواد ذاك الكوكب كانوا يحاولون الفرار منه بجنون بدلاً من الالتصاق به بجنون كما كان يجدر بهم أن يفعلوا!

وفي هذا اليوم أيضاً كان المقهى خالياً إلا من موظّفيه الذين اعتادوا على قدومي اليومي في الموعد ذاته... اتجهت نحو الطاولة التي اخترتها منذ اليوم الأول لأجلس إليها، فصرت أجلس إليها كل يوم كأنني عاجز عن اختيار غيرها، أو كأنها هي من اختارتني فصرت مكبّلاً إليها...

بعد دقائق جاءت النادلة بالقهوة التي باتت تعرف أنني سأطلبها، فأشعلتُ سيجارة ورحت أتنفس سحب الدخان التي نشرتها حولي، فظلت عاجزة عن أن تخنقني! ومع إشعالي للسيجارة الثانية انفتح باب المقهى سامحاً لهواء بارد بالتسلل إلى داخله بحثاً عن الدفء، ودخل رجل ضخم يرتدي بدلة سوداء، بدا واضحاً أنه حارس شخصي، وتوقف عند الباب ليذرع القهوة بعينيه المخفيتين تحت نظارته السوداء، ليمر بي دون توقف، كأنه أيقن بحسه أو بخبرته أنني من الصنف الذي يمكن أن يكون مهدَّداً مطارداً مذبوحاً فقط، ولا يمكن أن يكون مصدر تهديد! ثم خرج لأتوقع أن يعود ومعه أحد المسؤولين أو رجال العصابات، ولتخطر لي فكرة المغادرة قبل أن يتلوث الهواء بأمثال هؤلاء، لكنه عاد برفقة امرأة ثلاثينية رائعة الجمال تقدّمته نحو طاولة قريبة مقابل طاولتي، لتجلس أولاً بعدما قدم لها الكرسي ووقف إلى جانبها، ثم لتأمره بالجلوس على الكرسي المقابل لها! لا أعرف ما دفعني إلى استمرار النظر إليها! أهو تواجدها ضمن مساحة رؤيتي فقط؟! أهو جمالها؟! أم أنه الموقف الغريب الذي دفعها لتأمر حارسها الشخصي بالجلوس معها؟! رأيتها تتحدث بانفعال وعصبية وهي تجول بقلم على ورقة وضعتها أمامها على الطاولة، ليظل حارسها تمثالاً مختبئاً خلف نظراته وجمود قسماته! وتقدمت النادلة منها لتسألها عما تطلب... نظرَتْ إلى النادلة وقالت شيئاً، فأشرق وجه النادلة وارتفعت يدها إلى صدرها مع شهقة ظننت أنها ستوقعها أرضاً، ثم عادت مسرعة نحو الباب المفضي إلى المطبخ، لتخرج بعد لحظات مع كل موظفي المقهى المستترين بعملهم في الداخل عن أعين رواده، ثم لتخرج من غرفة قريبة، هي بالتأكيد غرفة الإدارة امرأة وقورة، كأنها تسأل موظفيها عن سبب تجمعهم، ثم لتقف بينهم وتأخذ بالنظر إلى تلك المرأة معهم، دون أن أفهم ما يجري!

بعد دقائق عادت النادلة بفنجانَي قهوة، فأطالت تحديقها في تلك الفتاة الجميلة وكررت ترحيبها بها، فهزت الجميلة رأسها مرات دون ابتسام، وقرأت في حركة شفتيها كلمة "سباسيبا" دون أن تنطقها، لتستأنف بعد انصراف النادلة حديثها العصبي وخطوطها العشوائية فوق الورقة، وبعد دقائق أسندت رأسها بين كفيها كأنها تغالب نوبة بكاء عارمة، دون أن يتحرك ذاك الحارس أو ينبس ببنت شفة! كنت قد أشعلت سيجارتي الثالثة، ففوجئت مع غرقي في مشهد الحسن الحزين بالنادلة تتقدم من طاولتي لتغيّر منفضة السجائر دون أن ترفع عينيها عن تلك الحسناء، وبالكاد سمعتني بينما كان فضولي يخاطبها:

- أوكسانا... أوكسانا... من هي هذه المرأة؟ وما سر اهتمامكم واحتفائكم بها؟!

فانطلقت أوكسانا بحماسة:

- إنها إيرينا بيليك... لا يمكن أن لا تعرف واحدة من أشهر مغنيات أوكرانيا!

وتذكرت... حقاً لا يمكن أن لا أعرفها! ففي ذاك الزمان الذي بت أشعر أنه بات غابراً كنا، نحن الطلاب، نزين بصورها جدران غربتنا، ونواسي حرماننا وكبتنا الموروث بحفلات صاخبة بصوتها، لكنها تغيرت كثيراً... أهي السنوات؟ أم الحزن؟ أم شطحات الفنانين؟! ظلت أوكسانا تتكلم دون أن أسمعها، إلى أن انعقد لسانها وهي تنظر نحو تلك المرأة... نظرتُ نحو إيرينا لتتلبسني الدهشة وأنا أراها تترك كرسيها ومرافقها وتتجه نحوي! حتى النادلة تسمّرت عاجزة عن الحراك إلى أن انتبهَتْ إلى أنها تسد طريق الهالة المتقدمة نحوي... موجة السحر والعطر والجمال... بنفسجة الحزن والدموع الدفينة، فأسرعَت بالانصراف كأنها تهرب، تاركة الذهول جاثماً فوق عينيّ...

- هل تنتظر أحداً؟

كان السؤال واضحاً ومباشراً، لكنه غاب في سيمفونية الصوت الصادح التي ملأت مسمعي، فأخرت استجابتي الخرقاء كأنني أستيقظ على وقع انفجار:

- لا... لا... أبداً... لا...

- هل يمكنني الجلوس؟

لم أصدق أن شمساً يمكن أن تستأذن كائناً كاد يموت برداً في أن تشرق! عجزت عن النهوض لدعوتها، فمددت يدي نحو الكرسي المقابل:

- بالطبع... تفضلي... تفضلي...

ثم منادياً في محاولة للهرب من رهبة اللحظة للنادلة:

- أوكسانا... قهوة للسيدة إذا سمحتِ...

وبدلاً من أن تجلس على الكرسي المقابل، تقدمت نحوي وتسللت بيني وبين الطاولة لتجلس على فخذي الأيمن، وبسذاجة الأغرار سألتها:

- ألا تجلسين على الكرسي المقابل؟!

لتجيب بإصرار:

- لا... أريد أن أجلس هنا...

أحاطت عنقي بذراعها اليسرى، وأشارت لمرافقها، فسارع بإحضار الورقة والقلم ووضعهما في متناول يدها على الطاولة، واتجه من فوره نحو باب المقهى، ليمنع أي زبون من الدخول إليه... شعرت أن الدماء ستطفر من قمة رأسي ومن وجهي، وأيقنت أنني تحولت إلى خضاب في هيئة رجل! بينما راحت ترسم على الورقة باللون الأسود شمساً مشرقة ووردة متفتحة وأشجاراً باسقة وخطوطاً أشبه بعبث الأطفال، ثم مالت برأسها لتسنده على رأسي! كنت مذ جلسَت قد أسندت يديّ الممدودتين على جانبي الكرسي، كأنهما دعامتان لجلستي المزلزلة بأجنحة تلك الفراشة... شددت الدعامتين محاولاً تسوية جلستي، فشعرت بأنني قد أتهاوى وأسقط معها، لتسألني وقد أحست بتململي:

- هل أنت منزعج؟!

فتلعثمت وأنا أجيبها:

- أنا مرتبك...

فابتسمت للمرة الأولى منذ دخولها ابتسامة رمادية، وتحركت حتى استطاعت أن تفك تشنج يدي اليمنى لتضعها على خصرها، ثم لترفع يدي اليسرى إلى ركبتها، كأنها تحرك دمية، وتناولت منفضة السجائر التي كانت في متناول يدي اليمنى قبل جلوسها لتزيحها كي تصير في متناول يدي اليسرى، وعادت لتحيط عنقي بذراعها اليسرى:

- يمكنك الاسترخاء والتدخين، أما أنا فأرغب أن أظل هكذا دون كلام...

قررت أن لا أدخن كي لا أنفث الدخان في وجهها الذي بات ملاصقاً لوجهي، فمددت يدي أطفئ السيجارة، بينما ظللت أحترق ببطء... أهو حلم ما أرى أم حقيقة؟! لا بد أنه سولاريس... ينضح ما أسن في أعماقي... يجسد أحزاني... يكثف أحلامي... ليعيدني إلى ما لم أعد عليه، أو ليهزأ بي... بعد دقائق أحاطت عنقي بذراعها اليمنى فتسلل كل ما فيها وراح يهدهد أعماقي... عطرها العابر للبرازخ الفاصلة بين الجنة والأرض... دفؤها المكابر وسط كييف القارسة... حزنها الذي راحت تبثني إياه عناقاً وأنفاساً... ما الذي تهرب منه؟! وهل يضاهي ما أهرب منه؟!

فجأة... كأن الصقيع انزاح عن أشلائي، وجدت نفسي منتشلاً من ذهولي، لأبادلها العناق، فنصير غريبين أكثر قرباً من حبيبين... لنصير متّحدين أشواقاً وأحزاناً واغتراباً وصمتاً... ضممتها إلي أكثر، ثم رفعت يدي اليسرى أمسح وجنتيها مواسياً وطالباً للمواساة، ففتحت عينيها الذابلتين ليتماوج الكحل الأسود الذي يحيطهما مثل قبلة، ويسيل فوق حمرة خديها... كان كل موظفي المقهى في مكانهم الأول الذي اختاروه لمراقبتها، حتى إنهم لم يلبوا طلبي لفنجان القهوة من أجلها... أبعدت يدي عن وجهها مفسحاً الطريق لانهمار الدموع التي انسابت على خديها وأنفها وصولاً إلى شفتيها، ثم

تساقطت فوق صدري لتزيده اشتعالاً بدلاً من أن تبرده! تمنيت لو أستطيع البكاء مثلها... لو أملك شجاعتها في احتضان غريب أتّحد معه في كوننا إنسانين يحق لنا الحزن ويحق لنا أن نجد من يخفف عنا أرزاءه... تمنيت أن يدوم ذاك العناق طويلاً... لكنها نهضت فجأة، فوضعت يدها اليمنى على وجهي مبتسمة كأنها نفضت عن روحها ما تلبد من غيوم، ثم انحنت لتقبلني... لم تقل شيئاً... فقط أشارت إلى مرافقها تأمره بدفع الحساب، بينما كبلني الموقف عن أن أرفض هذا، وعند الباب وقبل خروجها التفتت نحوي مع الابتسامة الناصعة ذاتها، لتلقي إليّ بحركة من يديها وشفتيها قبلة كانت أشبه بقبلة الحياة، حين نفخت الروح في جسدي لأنهض وقد التمعت في ذهني فكرة استيقافها، ليخبو بريق الفكرة خلال لحظة، فأعود للجلوس من جديد، لأمسك بتلك الورقة التي ما زالت على الطاولة وأتأملها طويلاً قبل أن أشد قبضتي عليها خوفاً من ضياعها...

في صباح اليوم التالي فتحت عينيّ وأنا أنوي أن أسلك على غير عادتي، أقصر الطرق المفضية إلى ذاك المقهى... إلى ذاك الكوكب... لعلي أحظى بلقاء تلك المرأة من جديد... لكنني سمعت أصواتاً مختلطة فزعة تتنادى لانتشالي مع غيري من تحت ركامِ ما كان قبل ساعات بيتي، وقد انشدت قبضتي على ورقة فوجئت حين تسنى لي فتحها بعد ساعات بما راح يطل عبر تجاعيدها من شمس مشرقة ووردة متفتحة وأشجار باسقة وخطوط أشبه بعبث الأطفال، مرسومة باللون الأسود...

المحتوى

الإهداء 5

جمر تحت الرماد 7

ابتسامة 9

غبار 13

نيرون 15

لقد نبح... 20

وس واس 39

المخبأ 51

على مقام الحب 65

تجارب 67

هل ستعرفني يا أبي؟ 70

أنصاف 74

على مقام الحب 82

المـوديـل 86

على إيقاع الحرب 95

قصة حب 97

عناد 101

الدفتر 108

القسيمة 114

عيون المها 117

سولاريس 120

الدفتر والقسيمة وغيرهما من القصص القصيرة/ هيسم جادو أبو سعيد.
– دمشق: اتحاد الكتاب العرب، 2019. – 127ص؛ 20 سم. – (سلسلة القصة؛ 4).

1 – 813.01 س ع ي د 2 – العنوان 3 – أبو سعيد 4 – السلسلة

مكتبة الأسد